السيرة والأنساب

تأليف

أحمد تيمور

وضع بالفرنسية ثم ترجم وروجع

طبع في المطبعة الاهلية بالإسكندرية سنة ١٩١٦

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يا حضرة القارئ

لحسن الحظ لم أنشأ في زمن هارون الرشيد اذ لو قدر لي أن أوجد في ذلك الزمان لتملقت القارئ بما يغريه من المدح والاطراء . ولكنت أستهل كتابي بديباجة أملاؤها بمترادف الالفاظ الرشيقة صارفاً همي الى التأنق في الانشاء والتسجيع . ولذا أعد نفسي كما أعدّك سعيداً اذ وجدنا في هذا الزمن الذي تمحصت فيه العلوم وتهذبت فيه طرق التأليف العقيمة وبرزت الاختراعات المدهشة فجلت عن عقول الناس حجب الاوهام الكثيفة وأطلقتها من ربقة التقليد لما وعته أساطير الاولين فاصبحت قيمة الكتب بما تحويه فصولها من المعاني الجزلة والعبارات المروحة للنفس الخفيفة على الروح والآراء الصائبة الصريحة لا سيما الكتب العلمية فان نظر الجمهور الى

التأنق في ألفاظها والضخامة في تعابيرها أصبح أمراً ثانوياً

فطب نفساً من تلك الوجهة فما أنا بمطريك بمدح ولا بمزعجك بتزيين لفظ . فانى أشعر منك بخصم لا يستهان به ذلك لان الكثير من المولعين بالمطالعه يملؤن استيعاب المواضيع التي تكون على نحو موضوع هذا الكتاب وما أحاول شرحه فيه

أعرف أنك تميل الى رؤية الاشياء رديئة اكثر منها حسنة وتفضل انتقاد العيوب عن التمن فى المحاسن كالطبيب الذي يبدأ بقتل حيوان لكي يدرس طبيعته . نعم أعرف كل ذلك وأكاد انظرك من مكاني تقلب صفحاته فترميه بشزر العيون وتمد شفتيك مشمئزاً ثم ترده الى مكانه قائلاً هذا عمل ناشىء في مهد الكتابة وان احتوى على بعض آراء مقبولة

أخشى كثيراً ان تجري على طريقة ذلك الطبيب البيطري او أنك كلما بدا لك عيب بادرت بتهجينه وتسرعت في الحكم عليه قبل الفراغ من قراءته . على أني أقدم كتابي للشبان ومن هم في دور التحصيل لا لفحول العلماء ومن قتلوا الوقت في العكوف على الاسفار الضخمة

* * *

فأنت أيها القارئ الفتى عليك أعوّل وفيك أؤمل واليك اكتب (فهل تسمح أن ادعوك صديقي) ولو رماك الشيوخ بأن روحك الخفيفة تنفر من التعمق في البحث وطبيعة سنك تميل بك الى مطالعة الابحاث البسيطة وما يقرب من الملاهي اكثر منه الى الجد . فلذلك أخشاك اكثر ممن جمدت نفوسهم منهم . فلئن كنت ملولاً كما يقولون فعلى الدنيا العفا

فهل لك أيها الصديق ان تقرأ كتابي كله قبل ان تحكم عليه وتغالب التثاؤب اذا اخذك او تترك المطالعة حتى يتجدد فيك الميل . فللتسلية قبل الافادة وضعته

قد يصادفك فيه ما ينفر ذهنك منه مبدئياً وتستجمع ما في ذاكرتك للرد عليه مع انه قد يكون داحضاً فيما بعد وانك تجد ما كان يخطر لك مثبتاً واعلم اني مهما توخيت سهولة التعبير ومراعاة القواعد المنطقية فلست بمقنعك اذا برز عقلك يصادم عقلي كلما اختلفنا في شيء بدل ان تحلم وتفهم رأيي أجمع وغايتي التي اقصدها

واملي ألا يشغلك انتقاد التراكيب وبعض الاراء الثانوية التي لا تروقك كطول المقدمة مثلا

لم اقصد حين كتابته ان اعلمك ما لا تعلم او ازيد من تهذيبك كمؤدب فذلك لم يخطر لي على بال . انما رايت كثيراً من الشبان تنقصهم قوة الملاحظة فتلبث الحقائق امام عقولهم غامضة وآراؤهم غير ناصحة لقلة من ينتقدها

رايت كثيراً من رفاقي لطيب سرائرهم وطهارة افئدتهم وسلامة نيتهم يقابلون اغلب القضايا بالتسليم فلا يسخرون برأي مهما كان سخيفاً ولا يزري مهما خالف الذوق واللياقة ولا يكلفون انفسهم بانتقاد من حولهم ولعل هذا لرغبة منهم في الحياة الهادئة ويفوتهم ان في المعارضة والانتقاد لذة تتوق اليها القرائح وترويحاً للنفس قلما نجده في سواهما . ألا يسوءنا ان نشاهد معظم الشبان على راي واحد في اغلب المواضيع فلا يتناقشون في امر ذي بال واسوأ من ذلك انقياد اكثرهم الى الآراء العاطلة لسلامة نيتهم المتناهية . ويا ليتهم ينقادون بهذه السهولة لذوي الآراء الصائبة والعاملين بذكائهم وكد قرائحهم على تمحيص الحقائق . الحق ان هذا عيب شائن في شبابنا وعلة يجب العمل لاستئصالها حتى تتجه العقول للبحث والنظر في كل شيء فلا يصدقون كل ما يسمعون ما لم يقم على

صحته دليل .والا فأي فرق بين المتعلم والجاهل ان اتحدا الاثنان في النظر والاعتقاد

اسوأ من هذا واغرب الاصرار على الاعتقاد في شيء بعد ان يقوم البرهان على فساده مع ان العقل السليم يجب ان يعترف بالحقائق متى اتضحت له ولو كانت تخالف مبادئه وما كان يعتقده قبلا والا كان ذلك غباوة وجهلا

لا ادعي ان في استطاعتي محو كل ذلك من الوجود لان تلك العيوب وُجدت وستوجد دائماً ولكن لا بأس من الاجتهاد في ايقاف تيارها وتقليل انتشارها

لهذه الغاية وضعت كتابي لعلي اصيب بعض ما أؤمل من القبول

جرى الفلاسفة على استعمال ألفاظ ضخمة تناسب المواضيع الفلسفية واشارات واسماء قد تكون غريبة بالنسبة لمن لم يألف المطالعة في كتبهم فاذا خالفت منهجهم فيما سأكتب فلا افعل ذلك استهانة بالفلسفة او للتقليل من أهميتها بل ليسهل تناوله ويتبادر فهمه لكل قارئ حتى لا يجلس في قراءته كما اجلس امام تلك الكتب مقطب الحاجبين قاصراً جميع حواسي على

فهم ما اطالع فلا اصل اليه الا بصعوبة وكثيراً ما اعيد القراءة المرة بعد المرة مع التأمل العميق فلا اصل الى الفهم جيداً

آليت على نفسي ان اسلك بالقاري هذا المنهج السهل مجتهداً ان أدخل على نفسه السرور بقدر استطاعتي ولا اقول انى قادر على هذه الغاية تماماً فمن القارئين صنوف لا يعجبهم طريف ولا يرضيهم اسلوب فلمثل هؤلاء أكرر رجائى ألا يقرءوا كتابي كي لا يجدوه أثقل من الحقيقة

اخص به كل معتدل المزاج يرى الحياة طيبة جميلة ولا يسأم من كل شيء . اقول ذلك واتوسم انه يروق الشبان المولعين بالمطالعة الذين يبتهجون بكل جديد حسن فلا يعدم منهم انصافاً في الحكم عليه . اما اولئك المتشبثون بالقديم الذين جمدوا على احترام كل متعلق به فليس لي أقل امل في استمالتهم لاستحسان شيء فيه . وحسبي ان انصح لهم ألا يكلفوا انفسهم شراءه او قراءته لئلا يضيع منهم ثمنه هباء اذ انهم لا يجدون فيه ما يسرهم ؟

(احمد راسم)

الله

دعتني أسرة افرنجية لتناول العشاء عندها ليلة احتفالها بعيد ميلاد ابنة منها . فلما انتهينا من الطعام مضوا بنا الى بهو كبير حيث ابتدات الموسيقى تصدح بألحانها الشجية واخذ بعض المدعوين يرقصون ويدورون في جميع جوانب المكان دورات تسر الناظرين . ولما كنت اجهل الرقص جلست بمعزل في جانب المكان أردد الطرف فيما يرتسم امام عيني من المناظر البهيجة وما تحدثه في نفسي من الشعور والتأثير

وقد جلس الاباء والأمهات يرمقون اولادهم بعين الرضى وابتسامات السرور وينظرون سواهم نظرات ليس فيهن وداد. وكان رب البيت ممن يكرهون هذه الحفلات لا سيما الرقص الذي يرميه بكل العيوب

لذلك كان يظهر عليه الضجر فرايته وقد بلغت منه السآمة مبلغها . وكان يشخص الى الحاضرين بعينين زرقاوين ملؤهما

السذاجة المتناهية حتى ليخال لك انه يفتح عينيه لاول مرة في هذا الوجود

اما زوجه فكانت دائبة الحركة كثيرة الانتقال فهي اشبه شيء بتلك اللعبات التي يوضع في جوفها آلة محركة لا تنفك عن الحركة حتى ينتهي معيارها وقد نال منها الجهد واعياها النصب وهي توالي المجيء والذهاب . فطفقت انظر اليها بعين التلهي فلما لمحتني امالت راسها وابتسمت. فلا ادري اهي تحييني بالسلام ام تجيبني على سؤال . والحق اني لم افهم ما حوته تلك الحركه من الاغراض

تركتني وقد اوقف الله فجأة هذا التمثال فألقت السيدة بنفسها على كرسي عظيم في احد اطراف المكان واخذت تمسح العرق الذي يتصبب من جبينها وهي لا تعلم ما تصنع اذ كان في ذلك خطب جسيم . فان التطرية التي كانت على وجهها قد ذابت من العرق وتشوه الوجه بخطوط حمراء متعرجة . يبكي ويضحك الناظر اليه في آن واحد . فرزقها الله بصديقة مخلصة ألفتت نظرها الى ما طرأ على وجهها من التشويه فعملت على اصلاح شأنها

وكانت الاوانس يرقصن وفيهن من براها الله من الجمال وصاغها من خلاصة الدلال ومن يرجع الطرف دونهن حاسراً كأنهن النحس اذا مر والدب اذا رقص والعجوز اذا ضحكت فما أجدرهن برشق الطماطم والبيض الفاسد الذي يترامى به القوم في المرافع

امام الرجال وخصوصاً الشبان منهم فكان عددهم يربو على عدد السيدات فانقسموا بطبيعة الحال بعد الراقصين الى قسمين فبينما ترى فريقاً منهم يتظاهرون بجد الحديث ترى الفريق الآخر مشتغلين بالنظر الى المخاصرة على ان الفريق الاول عرفوا كيف يخادعون بعض الراقصات مخادعة الحرباء فيرسل احدهم نظرات الشغف من طرف خفي الى الآنسة التي هي موضع غرامه واعجابه اينما انتقلت

وكان بينهم احد المحامين الثرثارين لم يفتح الله عليه بشيء الا التحدث عن نفسه ومناظريه فى حرفته بينما كنت اسمع من الجهة الاخرى لفيفاً من السيدات ينتقدن الملابس وقوام الراقصات بكلام طيه الازدراء وافانين السخرية

لم أطق صبراً وتحولت عن مكاني مبتئساً بما سمعت من

تلك العبارات السمجة فراراً عن المعلن عن نفسه وحرفته والمنتقدات اللآتي ضايقنني وآويت الى كرسي له مسند كبير لما آنست منه انه سيكرم مثواى ولكن وا أسفاه اذ وقع نظري على شابين اشقرين من دعاة الملاحة والظرف قصرا همهما في شيئين الأول ألا يتجعد قميصهما المكوي وقد أفلحا فاني كنت أخيل انهما جاءا بهما في تلك اللحظة من دكان الكي والثانى ألا يفوت الناظر اليهما رؤية ازرارهما اللامعة وجواربهما الحريرية انهما كانا جميلين ولكن اى جمال ؟ انك لترى منهما جمالا جامداً يلفت النظر حقيقة ولكنه لا يؤثر على الروح فهما اشبه شيء بتلك التماثيل الشمعية التى ترى في ما وراء زجاج (ماير واستين)!

حولت نظري الى زاوية من المكان فبصرت برجل لا تستطيع لمعرفة عمره سبيلا بادن مبطان يظهر عليه انه ناظر محطة وهو في حديث مع سيدة لم يصادفه ما يقطع عليه حديثه وكانت لهذا الرجل لحية كثيفة ينقصها شيء من النظافة ووجه احمر يضرب الى الزرقة كأنه لحم نيء . اما أنفه فكانت معقفة كأنها تشكو علة . ولعمري ان فى اشكال الانوف ما يدعو الى

التأمل فيها . وهذا ما دعاني الى تصفح الوجوه وتدقيق النظر في الانوف فوجدت منها انوفاً حساناً بواسم واخرى فظيعات عوابس انوفا دميمة ربما كانت عنوانا على سفالة ذويها

ومن العرانين ما تخاله ينظر اليك نظرة حقد وغضب او ما ينظر اليك نظرة الضاحك الساخر ومنها ذو الاسارير الذابلة. ثما راعني الا أنف ضخمة قد انفرج جانباها مفتوحة الحيشومين كأنها حمامة من الحمام الزاجل تتحفز للطيران ثم لمحت أنف سيد آخر تحمل نظارة كانت تتطاول الى رؤية قفاه وتكاد تمزق غيظاً لعدم استطاعتها الوصول الى أذنيه كما تدل على ذلك حركتها المتناهية او كأنها حمال ينوء بحمله ويتعثر في ثيابه وهو يحاول الجد في سيره عبثاً

وبينما كنت لاهياً بالنظر الى الانوف اشبه كلا بما شاكلها جاءني ثقيل يحدثني بتافه المواضيع فكان البله والغباوة يتطايران من عينيه الشبيهتين بعيني جاموسة فازعة او بعيني كلب يبول (١) .

بهاتين العينين كان يحملق فيّ بقحة فوددت لو استطيع

(١) قد انتقد بعضهم هذا التشبيه والحق انه مستهجن

مكافأته بعشر صفعات محكمات على قفاه

واخذ يشرح لي بصوت كصياح الخصي تشمئز منه النفس وتهتاج له الاعصاب لماذا خلت مدينة الاسكندرية من دواعي السرور والملاهي وكم يفضل هذا الفظ الوسكي « الجونيووكر » على جميع اصناف الوسكي وانه يأتي بجواربه ومناديله من اوروبا الى آخره من بارد الحديث السمج فما لي وهذا. وكان بين المدعوين رجل مثري يظهر انه من ذوى الاملاك الواسعة يجول بطرفه ذات اليمين وذات الشمال يستعرض الحاضرين فرداً فرداً بنظرات ملؤها الكبرياء والعظمة وكأن نفسه تحدثه انه ذلك الفذ الذي لا يعدله رجل في تلك الحفلة لا من شيبة راقيه ولا من محامين مفوهين ولا اطباء نطس ونحوهم ممن جعلتهم التقاليد والفرق ذوي مكانة في المجتمع الانساني. فما بالك اذن بمن دون هؤلاء ؟ اولئك هم الأصاغر في نظره لا يساوون ولو اجتمعوا حرفاً من اعضائه الكريم مهما منحهم الناس من الالقاب السامية والثقة والاعتبار

فها نذا انظر الى ذلك السرى يخفض من علوائه ويتضاءل وينحني امام غادة حسناء يجاذبها الحديث وهي تمر بطرف

منديلها على اهدابها بخفة ومهارة فما طارت ذرة واحدة من « بودرة » وجنتيها وما اغناها لو شاءت عن البودرة والتطرية أصلا . حقاً انها بارعة في الجمال وحسب صاحبنا أن تكون كذلك لتتلاشى عظمته امام هيكل جمالها دون كل عظيم من الناس .

هكذا صرفت نصف ساعة تقريباً وانا اظنها برهة أعد على الناس محاسنهم ومثالبهم ونفسي تأسف اذ لا بد أن أكون انا ايضاً موضع تأمل الآخرين ولا بد أن تكون فيّ عيوب لم أقف عليها ولم اوفق لاصلاحها فكما يدين الفتى يدان

وكأن رب البيت أشفق عليّ لما رآني منفرداً لا أبسم الا لمحاً فاقترب مني بلطف قائلا ما أسمج هذه الحفلات

فاجبته مبتسماً — انها ليست كذلك

— مالي ارى السآمة بادية على محياك ؟

— لا ! لا ! لست سئماً

رب البيت — تعالى ! تعال ! لا تحاول . . . هلمّ الى قاعة التدخين لتجلس مع جماعة الشيوخ فانت لا تعرف

الرقص . ولو عرفته ما زادك الا سأماً فما الرقص الا طيش ممل .

— انه ليس كما تصف واني لآسف لجهلي به

— لا تقل ذلك وأنا اعرف من المسلمين احتقارهم الرقص وهم مصيبون فى رأيهم .

فلما وجدت ان لا فائدة من مجادلته حركت رأسي علامة التسليم وابتسمت ابتسامة المتسامح. فوضع يده على كتفي يدعوني للسير أمامه الى قاعة التدخين ثم قدمني لمن فيها قائلا .

— اليكم أيها السادة طالب حقوق فلان ابن فلان احد أصدقائي وهو شاب ظريف في غاية الذكاء . . . نعم . . . . في غاية الذكاء . . . فطن جداً .

— لم أفهم غرضه من الاطالة في اطرائه ذكائي الا ان يكون ذلك سخرية منه بي ما علينا فقد تظاهروا جميعاً بتصديق مقاله . ثم قال

— يسرني منك ألا ترقص لأن ذلك جعلك حراً تحادثنا ونحادثك واني لاشتهي أن أرى مسلماً ذكياً يوسع لي ان أحادثه في عوائد المسلمين وعقائدهم لما اجد في ذلك من

الفائدة والتسلية .

فقلت في نفسي ويحي اسائلي هو عن اكلنا بالاصابع بدل الشوك واتخاذنا السراري والجواري والوصائف ولهونا بالقصاف بينما نحن مستلقون على المتكآت والمساور ندخن الحشيش ؟ . . . .

اما قاعة التدخين التي انتقلنا اليها فكانت ذات رونق وجمال يشف عن سلامة الذوق . ولكن من بها من جماعة الشيوخ كانوا أقل أنسا ومبالاة بقدر ما توقعت ان اجده منهم بعد ما سمعوه من صاحب البيت عند قدومنا .

وكان بين هؤلاء رجل مستطيل الوجه كالصورة التي يراها من نظر في ملعقة .... وكان الرجل اصلع ذا جمجمة لماعة لم يترك الصلع عليها الا شعيرات قد أمالها صاحبنا كانها قضبان . . . . . وفي فمه لفافة التبغ (سيجار) مشتعلة كعود من الحطب وهو مع ذلك يستقي الاخبار من جريدة كبيرة الصفحات . وفي زاوية اخرى من المكان جلس ثلاث رجال مسترسلين في الحديث

وجلس صاحب البيت بجانبي يحادثني بصوت خافت

كأن بجوارنا مريض نخشى عليه ان نعكر صفوه . فلما بدا له اني أخالفه فيما يقول رفع صوته حتى يسمعه الحاضرون فيجتمعون حولنا . . . . . لا شك انه تعمد ذلك الفاتاً لاصدقائه كي يسمعوا ما يعرضه عليّ من افكاره العصرية

يا عجباً للرجل الذي كان هادئاً رزيناً من بضع دقائق ينقلب دفعة واحدة و يثور كالبعير الهائج فيضرب المائدة بمجمع يده ويقهقه ليخزيني . . . . . كل ذلك ليدل الحاضرين على غباوتي لمجرد مخالفته في الرأي ولم أقل ما يستوجب غضبه ولا ما يبعثه على هذا الهياج فاسمع أيها القارئ الكريم ما كان بيننا قال — علمت انك ميال الى الجدل

— قليلا !

—أمادي انت ام دهري ؟

— كلا ! انما انا رجل أومن بالله كما يؤمن المسلمون وان اهملت من واجباتي الدينية

— ولكنك مؤمن ؟

— نعم مؤمن بالله

— لتسمح لي بما انك لست من المتنطعين في الدين

ولا من غلاته ان نتحاور في امره لعمري انه ليلذ لي البحث في تلك المواضيع الفلسفية مع المؤمنين لأني اراهم يضحكونني كثيراً . فهل لي ان اسألك ؟

— سل ما شئت فانه لا يضرني ان اسمع منك ما تقول دون ان يغير ذلك شيئاً من عقيدتي

— حاشاي ان اعيب عليك دينك او أحاول ان أغير عقيدتك فلست من المبشرين . انا اريد بالمحاورة التسلية والتلهي . فليتك تدري كيف يبلغ مني الضجر بتلك الحفلات الراقصة التي احييها مضطراً ارضاء لزوجي وهؤلاء ضيوفي لا يتناولون من الحديث الا ما هو عن الرقص والقبعات والملابس وما شاكلها وليت ذلك كان قاصراً على ساعة او ساعتين فقد يصبر الانسان على مثله اذا قل ولكن المزعج المقلق ان نضطر الى سماعه ثلاث ليال طوال كل اسبوع

لذا أعدّ اجتماعي بك الليلة فرصة ثمينة فاستعد كي أضايقك باسئلتي وان كنا في ظروف غير مناسبة للجدل .

— هذا لا يضايقني يا سيدي .

قلت له ذلك ويعلم الله مقدار كراهتي لتلك المناقشات

الدينية التي لا تنتهي ولا تنتج ولكني تصبرت فقال

— ماذا يدعوك الى الايمان بالله ؟

— ماذا يدعوني ؟ ماذا يدعوني ؟ هذا سؤال عجيب

— عجيب هو كما ترى ولكنك اذا انعمت النظر فيه وجدته ليس بالعجيب • انا نؤمن بالله تقليداً لآبائنا وقومنا . حقق النظر بنفسك • هل ترى صدق ما يقولون فان كان صدقاً فما برهانك ؟

— ليس هذا بعسير وهل يحتاج المرء لتعمق في الفكر حتى يؤمن بالله • ولقد شغلني هذا يوماً اذ كنت صغيراً فسألت استاذي الذي اجابني بما اقنعني . . . .

— ما برهانه ؟ وقهقه ضاحكاً

— لا اذكر كل ما قاله الآن انما اذكر جيداً قوله لا تكثر البحث في الاله فلما ألححت قال لي انظر الى معجزات النبي (صلعم) التي منها القرآن الكريم وهل خلق العالم من غير خالق • انظر الى هذه المائدة هل تراها في مكانها وعلى حالتها ان لم يجمعها نجار وهل ترى صنعة من غير صانع وهل المسببات توجد من غير اسباب ؟ فكيف يكون الكون لا بارىء له ؟

خالق برأ الكون وسوى البشر وخلق الدواب ﴿ يؤتينا أكلنا من الثمرات ويتوفى الأنفس اسمه العزيز الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الأنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾

تدعوه الله وان اختلفت الأمم في تسميته فكل تدعوه بأسم يخالف ما تدعو به الأخرى وتعبده على طريقة تخالف الأخرى ولكن الأمر الذي يخضع امامه العالم وتدين له القلوب هو تلك الحقيقة حقيقة وجوده تعالى . كل له قائتون وبوجوده مصدقون «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» وكم ذكر أستاذي فوق ذلك عبارات لا اذكرها الساعة

— كل ما قاله لك استاذك حسن ولكني لا أرى فيه شيئاً جديداً فلقد سمعت أنا ايضاً من استاذي مثله فهل يكفيك هذا كبرهان ؟

— ولم لا ؟

— لا تقل هذا أيها الشاب فقد كان العالم يقتنع بمثل هذه الأدلة في القرون الأولى اما في ايامنا هذه فهو لا يقنع

حتى صغار الطلبة فكيف رضيت لنفسك ان تقنع به ولم تطالب الزيادة من البحث والتنقيب ؟

— لا اكتم عنك اني لم ابحث منذ زمن طويل في المواضيع الدينية ولا أدري لماذا لا يقتنع الناس بتلك البراهين ؟

— ألا ترى ذلك ؟ ألا ترى ذلك ؟

قال ذلك وكرره متهكماً بعد أن رفع عقيرته وجهور من صوته ضاحكاً ليظهر من جهلي وبساطتي

فلا انكرك أيها القاريء ان ارتفاع صوت هذا الرجل قد رفع الدم الى رأسي من الغيظ والحنق واني اقول ذلك الآن وأعترف صراحة بحرج موقفي الذي جرني اليه إذ ذاك صخبه وضحكه وارتفاع صوته كأنه استاذ يلقي الدرس على خمسمائة طالب او خطيب في موقف مشهود قال

— هذه هي السخافة بعينها وما مسألة النجار والمائدة الا قياس فاسد بل هو أشبه شيء بضحكات « شكسبير » فكيف تتخذ من الأرض أي المادة برهاناً على وجود خالق ؟

عند ما سمع اصحاب الرجل قوله هذا التفوا حولنا وحملقوا فيّ فخانتني قواي وجمدت في مكاني لا استطيع الكلام وكان

كلما علا صوته زادت حمرة وجهه وامتقع لونى كأن ما كان يفر من وجهي من الدم يذهب الى وجهه على نسبة ثابتة. قال — كيف تجرأ على القول بحدوث المادة وامكان خلقها ؟

ألم يصل الى علمك نظرية الكيمياء البسيطة التي لا تخفى على كل طالب شهادة ثانوية . وانك لترى في كل كتاب كيمياء اجماع العلماء على ان المادة لا تنعدم (١) كما اثبتوا ذلك بالتجارب الصحيحة فهل انت ترمى بالعلم عرض الحائط ولا تقيم

---

(١) من أراد مراجعة هذه النظرية فعليه بكتاب دروس الكيمياء تأليف (دو تنجين) المقرر فى مدارس نظارة المعارف المصرية فى الجزء الاول صحيفة ٨٦ بند ٢١ وصحيفة ١٥١ بند ٣٨ تجد الكفاية من الشرح والتطبيق على الرسم . وقد وقفنا على زيادات املاها بعض الاساتذة على تلاميذه بمدرسة رأس التين وهي :

المادة قابلة للتحول من حالة الى حالة ومن صورة الى صورة اما بتغير طبيعي او كيائى ولكنها غير قابلة للحدوث او الانعدام. فالمغنيزيوم مثلا عند احتراقه فى الهواء زاد وزنه وقد علمنا ان الزيادة نشأت عن اتحاد أكسيجين الهواء به فهذا الكسب فى وزن الجسم غير مستحدث اي ان الزيادة لم توجد من لا شيء

فوزن فلز المغنيزيوم + وزن الاكسيجين الذي اتحد معه = وزن اكسيد المغنيزيوم الحادث

لحقائقه وزناً ام يقف بك البحث عند مائدة النجار وكلام استاذك ؟

— اراك احتدمت فوق ما يلزم واخذت منك الحدة ونسيت ما قلته لك من اني غير ضليع في المباحث الدينية . نعم اني اعرف تلك النظرية الكيماوية التي ذكرتها فماذا تريد بها ؟

— أتعرف تلك النظرية ؟ الحمد لله . وتعرف كيفية اثباتها بطريقة الشمعة داخل الزجاجة ؟

ولكن لو اخذنا شمعة مثلا لشاهدنا عند احتراقها ان شمعها وذبالتها يختفيان فلو وضعت مشتعلة في كفة ميزان معرضة للهواء فأن جميع وزنها يتعدم تقريباً . فهل معنى ذلك ان مادة الشمعة قد فنيت . لبيان انها لم تتعدم مادتها نقول : خذ زجاجة لمصباح (لمبه) وسد اسفلها بقطعة فلين بها ثقوب كثيرة وضع الشمعة فى احد هذه الثقوب وضع فى أعلى الزجاجة شبكة سلكية تكون سطحاً داخلها وضع فوق هذه الشبكة قطعة من الصودا الكاوية لامتصاص نواتج الاحتراق (غاز ثاني اكسيد الكربون وبخار الماء . بعد ان تفعل ذلك كله علق هذه الجهاز في كفة ميزان وعادله بثقل الكفة الاخرى ثم اشعل الشمعة بسرعة فبعد قليل ترى ان الكفة التي بها الشمعه قد رجحت وهذه دليل على زيادة عادلة فمن اين اتت هذه الزيادة ؟ لا شك ان مصدر زيادة الوزن هو الاكسجين الجوي. من هذه التجربة وامثالها استنتج العلماء ان المادة لا تتعدم ولا تستحدث واذا احتفظت فى جميع الانتجة فان وزنها يساوي وزن الاجسام المتفاعلة

— اعرف هذه التجربة فما لها وانكار وجود الآله ؟

— الامر هين اذن . فانعم النظر فيما اقول .

قال ذلك ونظر الى من حوله ليتثبت من اهتمامهم به واصغائهم اليه ثم عاد الى تبجحه فقال

— اتفقنا على ان المادة لا تنعدم . قد برهن العلم على صحته في جميع انحاء العالم من مائة عام تقريباً . فما معنى المادة لا تنعدم ؟ ان معنى عدم قابليتها للفناء هو انها لا نهاية لها اي انها لا تصير صفراً .

فالنتيجة المنطقية هي . انه ما لا آخر له . لا اول له والصفر أى العدم لا يتحول الى مادة

ولما كانت المادة لا آخر لها . وقد ثبت ذلك . فلا اول لها . وبما انها لا اول لها . فلا خالق لها . من هذا نستنتج ان ليس للعالم خالق ولو فرضنا ان له خالقاً لكان له اول . وهذا نقيض ما اثبتنا . فالعوالم كلها والناس والأجرام السماوية وسائر الكائنات يستحيل ان يكون لها خالق . لانها من المادة والمادة لا تخلق . فترى قولك ان الله خلق العالم كلام يأباه عقلُ المتعلم . لانه مناقض للعلم

وما نظرية النجار والمائدة التي تقيمها دليلاً على وجود الخالق الا مغالطة فأنه صنعها اي ركب اجزاءها ولم ينشيء مادتها اي خشبها ومساميرها فضربك المثل بها خروج عن الموضوع . فكيف تقبلها حجة ؟ أجب :

ـ ليس عندي ما ادحض به نظريتك فانها والحق يقال عليها مسحة من الصواب وان كنت لا أزال على يقيني مؤمناً بالله سبحانه وتعالى

ـ انك رجل تكذب على نفسك . ولا اظن احداً يجمع بين النقيضين الا غلاة المسلمين الذين يلمسون الحقيقة بأيديهم ولا يعترفون بها

ـ انني انحنى امام استنتاجك هذا ما دمت لا استطيع له نقضاً وان اعترافي بذلك لا يثبت صحة قولك ولا يغير من عقيدتي المبنية على الحقائق المعنوية والحب والوجدان وليس بآت من طريق الحقائق العلمية والاستنتاج

ـ وكيف تصر على اعتقادك اذا وضح الحق بالدليل والبرهان بلا سبب تبديه لي الا انك اعتقدته ولا تريد الا ان تبقى عليه ؟ . فهل تستحي ان تقر بانك كنت على ضلالة عشرين

عاماً ؟ ألا تخجل ؟

— انك يا سيدي من الفصاحة بمكان ولكني لا ارتاح لما تقول بل اراني بعد ما سمعت كل براهينك باقياً على اعتقادي . ربما اتحول في مستقبل الايام . . . . .

وقد يكون في بضعة أيام او اكثر . . . بعد التفكير والتروي . . . اما الساعة فيقيني هو هو . . . فحدثني كيف يعتقد ملايين المتعلمين في الله اذا لم يكن له وجود ؟

قال — من اين علمت انهم في وجود الله يعتقدون ؟ ألا أنهم يقولون ؟ انهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم . وهل متيقن انت ان ما تسميهم متعلمين حقيقة هم عالمون ؟ فاصغ اليّ : اذا تظاهر الكثير من اولي العلم بالايمان فلاسباب انا اذكرها لك . انما الأديان والاعتقاد في الله من صنع الانسان أوجدها لتحسين احواله وطلباً لمكارم الاخلاق . وانت تعلم ان السواد الاعظم من الناس جهلاء ناقصوا التربية يميلون الى الشرور قد فسدت طباعهم ونفوسهم فلو اردت هديهم بطريق الاخلاق أعيتك الحيلة وهل تطلب من اللص ان يبتعد عن السرقة بالوعظ والارشاد مع انه لا شرف عنده

ولا شمم ولا شعور ولا احساس ؟ فأي رادع لذلك الشرير غير دين ينهاه ويزجره ويعده ويمنيه ؟

خلق الانسان لنفسه الهاً وشرع ديناً تراه يعمل على نشره في سائر انحاء المعمورة

وما الدين الا بحث في الاخلاق يقصد به تقويمها وتهذيبها يشب المرء عليه فيصبح وقد استقاه طفلا عقيدة في شيخوخته وهيهات ان تنزع من قلبه .

عقيدة في إله يراقب حركاته وسكناته وينظره اينما توجه ثم يعيده بعد موته ليجازيه على سيئاته وحسناته. ويلقى بالمسيئين فى نار جهنم خالدين فيها كلما نضجت جلودهم بدلهم جلودا غيرها . ويحل المتقين في دار كرامته وفردوس رضوانه ليروا من انواع النعيم والهناء والمسرة ما لم يكن ليخطر لهم على بال

اله خلق العالم في ستة ايام وكان عرشه على الماء

هكذا ترى الانسان يعمل الخير ويتجنب الشر رغبة في الوعد وخوفاً من الوعيد

— فهمت ما تريد

— أليس كذلك ؟

ثم التفت الى اصحابه فرآهم قد تشتتوا لانهم لم ترقهم مجادلتنا . حينئذ اجترأت على سؤاله فقلت

— اني معك فيما قلت ولكن امامي صعوبة اخرى

— وما هي من فضلك ؟

— نرى ان المادة متحركة . فالشمس وباقي الكواكب تسبح في افلاكها ولكل منها حركتان . داخلية وخارجية فالارض مثلا متحركة . هذه الحركة لا بد لها من قوة تنشأ عنها . لانه لا حركة من غير قوة ولا قوة من غير قدرة . وما هذه القدرة العظيمة الا قدرة الله تعالى

— ان كلامك هذا ككلام صغار الطلبة ولماذا لم تبحث عن سبب مصدر تلك القوة حتى لا تلجأ الى نسبتها لقدرة الله ولكن تلك عادة المؤمنين كلما اعياهم البحث في حقيقة شيء نسبوه حالا الى الله

— اذن وضح لي مصدر تلك القوة فاني اراك استضعفت استدلالي

— اتريد ان تعرف المحدث للقوة التي تنشأ عنها الحركة ومتى أحدث ذلك ؟ هذا امر سهل .

ان الحركة الداخلية من لوازم المادة فمتى وجدت المادة وجدت معها تلك الحركة(دون احتياج الى قوة خارجية تنشأ عنها) فهي التي تجذب الذرات فتتماسك حتى تتكون منها المادة . لا يمكننا ان نتصور مادة مجردة عن قوة الجذب بين ذراتها او بعبارة أخرى عن الحركة الداخلية

قد بينت لك قبلا ان المادة لا أول لها .

ووضحت لك الآن ان الحركة الداخلية ملازمة للمادة

فبذلك تكون تلك الحركة لا اول لها اي ازلية في المادة.

فكيف يكون لها محدث بعد اثباتنا ان ليس لها اول ؟

فما قولك في هذا ؟

— حسن ! هل لك ان تخبرني كيف تتحرك الكواكب في الفراغ من غير قوة ؟

— نعم ان حركتها تسببت عن قوة احدثتها ولكن المادة لم تعد محتاجة الى تلك القوة لتسيرها في الفضاء

— لا افهم مرادك جيداً

— اصغ الآن الى المزيد

هل عرفت في الطبيعة ما يسمونه بقانون الأنرسيا او

القصور الذاتي ؟ معنى ذلك ان الجسم المتحرك لا يزال آخذاً في حركته حتى يصادفه سبب خارجي يضطره الى الوقوف وكذلك الجسم الثابت يبقى ثابتاً حتى يطرأ عليه سبب خارجي اي قوة فيندفع في المسير

وبعبارة أوضح . لو قذفت بحجر في الهواء فأنه يستمر في سيره بقوة القذف لو لم يكن منجذباً الى الوقوع على الارض بثقله الطبيعي اي بجاذبية الارض له والضغط الجوي عليه وبمصادمته الهواء الى آخره . . . وبالاختصار لو لم يصادف الحجر ما يوقف حركته لأستمر متحركا فى الفضاء ابداً بقوة القذف الاولى

أظن ان هذا معقول

ان المادة سابحة في الفراغ من غير قوة تدفعها الآن على الاستمرار في حركتها الا بما اكتسبته من القوة التي نشأت عنها في باديء الامر فهي آخذة فى حركتها حتى يعترضها عائق فى هذا السبيل . ولست في حاجة ان اقول لك ان المادة اعني جميع الكواكب تسبح في الفراغ على هذا القياس.

لم يبق علينا اذن الا ان نعرف متى ظهرت تلك القوة

الاولى في المادة ومن الذي احدثها ؟ فنقول علمنا مما تقدم ان المادة والحركة وجدنا دائماً معاً . فلا مادة بلا حركة . ولا حركة بلا قوة .

قد ظهرت آثار تلك القوة في المادة حين وجدت المادة

ومن حيث اثبتنا ان المادة لا بداية لها . فالقوة ايضاً لا بداية لها في المادة لتلازمهما حتماً

فبما ان القوة أزلية . فلا يمكننا القول بان لها خالق .

هل فهمت ؟ اسمع ! اسمع ! نعم هذه القوة تفوق حد الوصف ولكننا لا نستطيع بحال ان نسميها الله لانها لم تخلق المادة . ولا نستطيع ايضاً ان نتصور ان القوة التي تسبب الحركة الخارجية مهما عظمت تكون مفكرة مدبرة صانعة توجد جنة ونار آتميز بين الخبيث والطيب

فلماذا تمسك باعتقادك من غير دليل

لا يفوتنك ان هذه القوة الخارجية . ولو هالك شأنها ليست الا قوة محركة على الاكثر كالقوة المحركة لقطار .

أفلا ترى انه من الصعب تصورك فى مثل هذه القوة القدرة على الحكم والقضاء بين الناس وتدبير دقائق الكائنات .

هنا وقف صاحبنا فقلت

— انك من الفصاحة بمكان ويخيل لي انك لا تصدق بشيء في الوجود فما ظنك بما بعد الموت

— لا شيء

— واين تذهب الروح

— الروح ؟ كأن لنا روحاً ! اتعتقد ايضاً بوجود الروح ؟ اذن ليس ببعيد أن تعتقد في وجود ما هو اغرب . فلا يبعد ان تسألني عن ابليس والشياطين والملائكة ونحوها من الخرافات التي لا يقوم على وجودها دليل . فاسمع ما اقول : ان كل ما ليس بمادة . لا وجود له الا في المخيلات والروح على ما يقول علماء الاديان ليست جسمانية اي ليست من المادة . او بعبارة اخرى لا تحس ولا تمس . وقد عرفت ان ما ليس بمادة ليس بشيء اي لا يكون الا فراغاً اي عدماً . والعدم ضد الوجود . فكيف بك وانت شاب متعلم تعتقد في مثل هذا ؟ ألم ترَ في ذلك ما يعيبك ؟

— دع عنك لومي الآن فهل تقطع برأيك هذا ان لا وجود لغير المادة ؟

— اي نعم ويستحيل عليك تكذيبي . والا فهات برهانك

— هل الكرم والبخل وحب الظهور والحسد اشياء لا وجود لها لانها ليست من المادة ؟

— يا عزيزي هذه أسماء معاني لا غير . اي الفاظ نعنيه لا وجود لها الا بموصوفاتها . نعم يوجد الكريم والبخيل ومحب الظهور والحاسد

ولكن فلا وجود للكرم والبخل مثلا الا اذا تصورت امامك رجلا كريماً او بخيلا . وعليه لا يمكنك ان تتصور الكرم مجرداً عن كريم اي مجرداً عن مادة . فهو اذن غير موجود وان وجد في اللغة . وما يقال عن الكرم يقال عن الرحمة والبخل والحسد وغيرها من المعاني . ارجو ان تكون قد فهمت .

— ظاهر ما تقول فما رأيك في القوة والكهرباء

— لا أرى فرقاً يا عزيزي بينهما وبين ما سبق القول عليه فالقوة لا توجد الا حيث توجد المادة . ازل المادة تزل القوة . والا فكيف ترى قوة مادة مثلا بعد ان تزيل المادة ؟ هل اقتنعت . سل ! ما شئت ان بقى عندك شك

— اجل ! ان الرجل منا يفكر . والفكر ليس بمادة ومع ذلك موجود . . . . . ستقول انه كالقوة اى انه لا وجود للفكر الا بوجود الانسان . وما الانسان الا مادة . أليس كذلك ؟

— اي نعم ! اي نعم ! هل عدت الى رشدك الآن ؟ . يسرني ان تهتدي بنفسك كلما اتضح لك الدليل . واليك الصوت مثلا . فلا وجود له منفرداً ضع ناقوساً في فراغ لا هواء فيه وانت لا تسمع للناقوس صوتاً لان الصوت لا يتكون الا بوجود الهواء اي المادة . واكرر لك القول . كل ما ليس مادة وكل ما ليس له علاقة بمادة فهو غير موجود

من العبث اذن القول بوجود الفكر من غير مفكر . وما الفكر الا حالة من حالات المخ وعرض من اعراضه ما دام المخ سليما . فاذا اعتراه علة فلا وجود للفكر . لعلك اقتنعت هذه المرة يا عزيزي .

رأيت صاحبي اناخ عليّ بكلكله واستجمع كل قوة في نفسه لاعتراضي له بقصر النظر والعجز عن إقامة الدليل على معتقدي . وكنت اراه يتهلل سروراً كلما طمع في اقناعي . فقلت له

— اني اسلم لك جدلا ما اتيت به من الادلة في اقناعي الى اجل غير بعيد . واني ازمع البحث والتفكير فيما أوردت وسأدعوك للمناظرة لاول فرصة حتى لا أؤخذ على غرة كهذه المرة . وارجو ألا تتخذ قصوري الوقتي دليلا على الغلبة او اني سلمت لك نهائياً بصحة ما تقول

— لك ذلك . واستعن بمن تريد وراجع ما شئت من الكتب فأني شغوف بالمناقشة واكاد أجن بها جنوناً

— أرى على وجهك سيماء الواثق من نفسه كل الوثوق

— لاني على الحق وكل ما سمعته مني اساسه الاستنتاج المنطقي والعلم الصحيح

— اطرِ نفسك بما شئت واغتبط بما أوتيت من قوة الجدل وزلاقة اللسان فموعدنا قريب . قد ازف وقت الرحيل وآذنت الليلة بالانتهاء . والحق يقال ان الفصاحة تتدفق من لسانك حتى لا يوقف تيارها ما يعارضك به مناظرك . ماشاء الله

— غير غريب ان ترى مني ذلك فقد اعتدت المناقشة والجدل في هذه المواضيع من زمن بعيد

— اما انا فلم اعتدها بالمرة . ولذا لم اوفق لمباراتك في قوة

بيانك هذه الليلة على غير عدة

— تشبع ما شئت من علم اللاهوت فأني على يقين من ان احقر مادي او دهري ينتصر عليك بسهولة متى جادلته

— اتظن ؟

— اني لواثق متأكد

— الملتقى قريب يا سيدى . استودعك الله

— هذا ما ارجوه فسر مصحوباً بالسلامة . انك لذكي ومن كان مثلك يذلل بذكائه صعوبة البحث في هذه المواضيع وان أعيت سواه .

يا للعجب ؟ يراني صاحبنا ذكياً الآن لكوني تملقته بكلمتين ولولا ذلك لحكم عليَّ بالبلاهة الى الأبد . فارقت هذا الرجل وبرأسي صداع مما أجهدني به .

يا لها من ليلة : قضاها القوم باللهو في الرقص والمغازلة وتشنيف بالحان الموسيقى الشجية . وقضيتها بكد القريحة في مناظرة ذلك الفيلسوف الثقيل واجهاد النفس بالاصغاء لسماع ما يبدي وما يعيد كأنه اراد بذلك الانتقام مني حيث لم يستطع ان ينتقم من عشاق الرقص وحفلاته . ويعلم الله كم

كنت أضيق صدراً لسماع كلامه وكم كان ثقيلا على أذني فكأنهما اذ اصغى بهما اليه اناء حملته بين يديّ لمريض يلفظ فيه ما يرجعه من غرغرة وتفل

فارقته وركبت عربة قافلا الى بيتي متخذاً طريقي رصيف البحر . كان البحر اذ ذاك ساكناً كأنه مخلوق عظيم انهكه التعب فاستلقى على ظهره يستنشق الهواء العليل شاخصاً ببصره الى السماء التي أخذت زخرفها وتزينت بتوائم النجوم وما يحوط ذلك من جمال وبهاء . وبين برهة واخرى يجري في قبة الأفق شهاب فيختط قوساً يخترق ظلمة الليل وتستنير به زرقة السماء فتزداد جمالا . هكذا قطعت طريقي تحت ستار الليل الى ان وصلت البيت فشعرت بشيء من الراحة . وقد افسح من صدري نوعاً ما اختلسته من انفاس النسيم . عندئذٍ ناولت الحوذي اجرته ويظهر انه استكثر الاجرة فأحدث ذلك في نفسه سروراً اطلق لسانه بالدعاء لي اذ قال الله يحفظك ويطول عمرك ويغنيك و . . . و . . .

فكدت اصيح في وجهه بان الله غير موجود ما دامت المادة لا تنعدم ولأن الانرسيا والحركة الداخلية والخارجية

والضغط الجوي هي المكونة لكل شيء في الوجود . هممت ان
اجهره بهذا الخاطر ولكني عدت فخشيت ان يظنني مجنوناً
فأسرعت بالدخول .

لا اكتم اني ما خلوت بمخدعي حتى شعرت بأنفعال
غريب يخالج نفسي فتثور وتندفع نحو الخطابة والبرهنة
ولكني لم اجد من حولي من يناظرني . وقد خيل لي ان اقف
امام المرآة فأناظر شخصي . داخلتني عظمة كالتي تحدثها النشوة
في نفس الثمل فاكبرت نفسي اذ ذاك وتصورت اني قادر على
اقناع من يناظرني أياً كان في المادة والروح ووجود الآله
الى آخره . مما سمعته من ذلك الفيلسوف .

خطر لي ان اكتب لأستاذي في اللغة العربية سابقاً
ليوافيني في صباح الغد فأخذت من فوري أبحث عن عنوانه
في جيوبي فلم أجده . ثم في خزانة ملابسي حيث لم اترك
واحداً منها بغير بحث في جيوبه فأطرحه على عجل واتناول
غيره حتى اتيت على كل ما في الخزانه من الثياب التي صارت
امامي كوماً . فلما اعياني البحث وسئمت جلست فوقها آسفاً
مكتئباً كما جلس من قبل « نابوليون » على بقايا « موسكو »

اخيراً عثرت على العنوان وجاءني استاذي في الغد ولا تسل عن اندهاشه حينما رجوته ان يحضر لي بعض كتب دينية متينة تثبت وجود الله والروح واخرى تبحث في فلسفة الأديان ولم اشك انه ظنني في تلك اللحظة مجنوناً فقال

— لمن احضرها ؟ ألا تؤمن بالله

— ان الشكوك تساورني

— لا تخف . . . هذا عارض بسيط لا يلبث ان يزول من نفسه فلا تتجشم مطالعة الكتب الفلسفية فليست مروحة للخاطر

— لا بد لي من المطالعة اذا اردت ألا تغلبني الشكوك

— ما أخالك الا فاقد الصواب والا فمن ذا الذي بذر هذه الشكوك في قلبك ؟ اجلس وانا أبرهن لك على وجود الآله .

ما حملك على الشك في وجوده تعالى ؟

— اسباب عليّة . ارجوك ان تبعث اليّ بما أريد من الكتب .

فارقني الاستاذ بعد هنيهة وهو يحاول ان يخفي امتعاضه مني لأستسلامي الى الشك وتعويلي على الحقائق العلمية ولم يجد بداً من ارسال ما طلبت حرصاً على عقيدتي .

قرأت اربع كتب فلسفية فما شفت لي غليلا اذ لم اعثر فيها على ما ادحض به حجج مناظري بالأمس. مضى عليّ شهر بعد تلك الليلة وانا أحادث واناقش كل من لقيت ممن اتوسم فيه العلم والمعرفة والميل الى الجدل فلم اقف على شيء جديد الا ما سمعته من شيخ حاد الذكاء دقيق النظر يظهر من عبارته التي اوضحها بنصها الآن

سبحان الله أيشك عاقل في وجود الله

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد الا على اكمه لا يعرف القدرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قدسترا

يا هذا ان الله واضح كالنور وكل ذي عينين يؤمن بوجود النور نهاراً لأنه يرى به الاشياء مع انه لا يرى النور وليس يصح في الاذهان شيء . اذا احتاج النهار الى دليل. ما منعك يا هذا ان تؤمن بوجود الاله كما تؤمن بوجود النور او الظلمة فالظلام يوجد بذهاب النور ولكنا لا نرى الظلام مع اعتقادنا بوجوده . ادخل حجرة حالكة الظلام لا ينفذ اليها النور من اية نافذة فلا ترى شيئاً سواء أغمضت عينيك ام فتحتهما فهل انت فى تلك الحالة ترى الظلام ؟ او

يتسرب الى ذهنك الشك في وجوده معك لانك لا تراه ؛ لا شك ان الشيخ كان متعلما غير انه لا يحسن التعبير وترتيب ما يخطره من المعاني فقد كان يشط ويتهور اثناء مجادلته فلا يزن ما يقول بميزان العقل ولا أدري ان كان ذلك نوعاً من الهوس الذي قد يعتري كثيراً من المشتغلين بالابحاث الفلسفية لانه استطرد فقال. ومع ذلك ترى الله في البراعة كما تراه في السراج فانه ينير كليهما وكما تراه في كل شيء ينمو في هذه الحياة فالطفل ينمو والحجر ينمو وكل شيء ينمو الا الأحزان فانها تنقص وتتلاشى وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . فمن يغير هذه الاحجام والاقدار الا الله الى آخره

هكذا قضيت شهراً بين امعان في المطالعة والتنقيب ومجادلة كل من تسمح الفرص بمجادلتهم من رجال الدين علّي اعثر على ما يكون كحجر ألقمه ذلك الفيلسوف المتعنت (واعني به رب البيت) فلم ازدد علما بشيء جديد فضلا عما كنت اجده من اكثرهم من قلة الاكتراث بحديثي ومن الفرار خشية الجدل والمناظرة.

قد يكون اكثر مَن ذكرت محقاً لان الوصول الى اثبات وجوده تعالى ببرهان يقنع الماديين ومن هم على شاكلتهم لا ينيل وظيفة ولا يوصل الى فائدة دنيوية يحرص عليها . ومنهم من كان يقطع عليّ الحديث وينهاني عن التمادي في مثل هذه المباحث وهو على ثقة من ان كل من يتمادى فيها تزيد شكوكه وينتهي امره الى الجحود . ومنهم جماعة كانوا يتهيئون للحاماة فكان الواحد منهم يتكلم كمحامٍ جاعلا همه حسن الالقاء والتعبير بالفاظ انيقة خالية البرهان في الموضوع

لا اكتم عنك ان الملل اخذ يستولي عليّ اذ لم اهتد بنفسي او بواسطة غيري على ضالتي . ولا بد ان صاحبي الفيلسوف كلما ابطأت في موعده وتذكرني سخر مني لا سيما اني لم ازره بعد تلك الليلة . وليت شعري ما عساني اجده منقذاً من مأذقي . ولا مفر من زيارة الرجل ولو بعد حين . أساتل نفسي أأعترف له بعد طول المدة بأنه مصيب في اعتقاده كل الاصابة اذ لم استطع ان اقيم البرهان على فساد اعتقاده بغير ما اوردته آنفاً واني مع ذلك لا ازال متمسكا بعقيدتي ام أقرّ له انّي جئته تائباً مذعناً لنصحه وارشاده

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فرجت وكنت اظنها لا تفرج

فبينا استعرض ما في ذاكرتي خطر لي ان اذهب الى رجل كنت اعرفه وغاب عني ولم يكن ممن حادثتهم في الموضوع قبلا ولكني أعتقد فيه الذكاء وان كان لا يجزم بشيء في الوجود فما طرقت معه بحثاً ذات يوم الا ألفيته بين الشك واليقين . فلم ادرِ أمؤمن هو ام كافر ولكني أملت ان يكون حاقداً مستاء من دعوة من ينكرون وجود الله .

ازمعت مقابلة هذا الرجل وان ابتدره بعقيدة ذلك الفيلسوف الغالي في مذهبه عسى ان تثير المفاجأة من نفسه فينفعل بالرد عليّ والبرهنة على عكس ما اقول .

ذهبت اليه في الغداة فوجدته يطالع بمكتبته . فسلمت عليه وجلست اتبادل معه الحديث عن انقطاعه عني وسرعان ما حولت الحديث الى الدين والمادة والروح الى آخره . وانا اتظاهر بالمالية متحاظماً عندما اصدعه بما وعيته من عبارات الفيلسوف الكافر . كنت اتكلم وهو ينظر اليّ من خلال نظارتيه مغمضاً نصف جفنيه نظرات تشف عن الاستخفاف

بكلامي وهذا كل ما ابتغيه وارجو الوصول اليه . ولا شك انه لم يقطع عليّ الحديث حتى انتهي من كلامي فيأخذ فى الرد عليه. وفعلا ما كدت انتهي من حديثي حتى بادرني قائلا بصوت وقور

ربما كنت مصيباً في بعض ما تقول ولكنك لو تأملت معي . . .

ثم شرع يفند اقوالي كلمة كلمة الى ان اتى على جميع دعواي . . .

اصبحت والحمد لله قادراً على كبح جماح فيلسوفي العنيد والخامه. على رسلك أيها الفيلسوف الغرور المعجب بذكائه وفصاحته فستنحنى صاغراً امام حجتي الدامغة وسينطفىء سراج دعواك الكاذبة امام شمس الحقيقة الصادقة.

عزمت ألا أناظره الا مطمئناً هادئاً مجتهداً ان يكون لصوتي شعار العظمة والكبرياء فضلا عن قوة الحق القاهر حتى يكون ذلك ابلغ في كمده والخامه

فبينما انا اسير ذات يوم في الطريق اذ قابلني هذا الرجل الفيلسوف فوضع يده على كتفي وقال ضاحكاً

— أين كنت يا عزيزي تلك المدة ؟ انسيت وعدك ؟ والا فمتى تجيء ؟

— متى شئت واعذرني لتسويفي فقد كنت مشغولا

— هل بحثت ونقبت ؟

هنا اردت ان اتظاهر بقلة الاكتراث به فقلت

— كلا لم يسمح لي الوقت بذلك ولكني فكرت قليلا في حجتك ويمكني ان اجيب دعوتك بالعودة الى المناظرة في اي وقت

— اني مسرور من قولك هذا ويا حبذا لو تزورني يوم الثلاثاء الساعة الرابعة مساء

— لا مانع انما ارجوك ان تدعو بعض اصحابك لشهود مناظرتنا ليكونوا حكماً فيما يدور . هنا قهقه الفيلسوف وقال

— ليس عندي اشهى من ذلك وانك لتزيد به سروري .

افترقنا . وجاء يوم الثلاثاء الساعة الرابعة وانا ببيت صاحبنا حرصاً على موعده الذي كنت ارقبه بشغف فوجدت بالبهو اربعة رجال لا اعرفهم وبحكم العادة قدمني اليهم وكان احدهم يحمل عدسة بلور باحدى عينيه (مونكل) لم ارتح

لرؤيته والثاني قد وضع في فمه منبسما (بيبا) يضرسه بأسنانه على الطريقة الانجليزية وقد شمر سراويله (بنطلونه) الى ساقيه حتى بدا شعرهما . وهو شاب مسلم رجع حديثاً من اكسفورد . والثالث معلم على ما يظهر من نظارته ولحيته المستطيلة . ورابعهم غليظ لحم الوجه احمره بادن مبطان جداً يخيل لناظره انه يرفع بطنه بآلة داخل ثيابه الضيقة حتى برزت امامه كالحابية

وكان رب البيت جزلا مبتهجاً يبسم لكل واحد بسمة خاصة فبعد ان تبادلنا التحية وتناولنا الشاي ودار بيننا الحديث قليلا على حال الجو يومئذ استهل رب البيت كلامه بمقدمة ادبية قال في نهايتها انه آسف ان يرى رأيه مخالفاً لرأيي وانه يرضى السادة الحاضرين حكما بيني و بينه وانه لا يعتمد في مقاله إلا على ما اثبته العلم الصحيح الذي لا يمارى فيه . . . اما المؤمنون فقرم طيبو السريرة يسهل انقيادهم . ثم التفت اليّ وقال:

— اتسمح لي يا عزيزي ان أبين لهؤلاء السادة القصد من محاورتنا وأبدي لهم آرائي وآراءك باختصار

— اشرح ما تريد من آراءك واترك لي شرح آرائي ولهؤلاء

السادة الحكم بما يرون بعد .

طفق يفيض من آرائه بفصاحته المعهودة حتى سرد ما كان منه في لمناظرة الاولى حرفاً بحرف تقريباً وهو يجاهد ليضعني موضع الضعيف المقهور ثم قال

— تكلم الآن يا عزيزي بما يعنُّ لك

— قبل ان استرسل في الكلام اسمح لي ان ابدي ملاحظة اولية . نحن نتناقش في موضوع هو ما وراء المادة من عدم ووجود ولا يخفى ان هذا موضوع فلسفي ولذا ستكون المناقشة فلسفية لا علمية

— كيف ؟ كيف ؟ ماذا تقول ؟

— على رسلك . لا تقاطعني . دعني اتكلم . ومتى انتهيت فقل ما تشاء . نعم ان المناقشة يجب ان تكون فلسفية ما دام الموضوع كذلك . اذاً لا معنى ان نتجادل كيماوياً ما دمنا نتكلم في غير الكيمياء . كما لا يصح ان نتجادل فلسفياً في حل تجربة كيماوية . فما رأيكم ايها السادة ؟

قال بعضهم ! هذا معقول فقلت لصاحبنا

— هل رضيت ؟

— لا أرى مانعاً فان بغية الفيلسوف هي بغية العالم كلاهما يبحث وراء الحقيقة على كل حال. فهات ما عندك

— اشكرك. ولما كنت فيلسوفاً مؤمناً لم اجد فى البراهين التي قدمتها لي ما ينفي وجود الله. كل براهينك مبنية على تلك الحقيقة العلمية وهي خلود المادة. وأنا لا اعتقد بصحة تلك الحقيقة ككل فيلسوف

— ها! ها! ها! ما اجمل ما تقول. أتحتقر العلم كالمخرفين من الشيوخ. ان المضحك من اعداء العلم انهم يحتقرونه ولا يأنفون من الانتفاع به. وينكرونه وهم أول اللاجئين اليه. فالتلغراف والتليفون والبخار والسيارات والترام التي هى من ثمار العلم في عرفهم لا شيء ومع ذلك لا يستغنون عن استخدامها. والاطباء عندهم دجالين ما داموا في صحة جيدة. ولكن متى مرض احدهم بادر الى استدعاء الطبيب. أأذا اصيبت عزيز لك من عائلتك بمرض خطر كالدفتيريا مثلا فما أنت صانع؟ أتتركه يموت صبراً ام تسرع الى الطبيب ليسعفه بما يوقف خطر الداء على حياته. وما ظنك بي اذا منعتك الذهاب في تلك الحالة قائلا ماذا يجدي الطبيب وانت لا

تعتقد صحة علمه . ماذا كنت تقول لي اذ ذاك ؟

— اقول انك لا تريد ان تدعني أتكلم . قلت اننا نتناقش فلسفياً فلزمك ان تعتبر مناظرك فيلسوفاً لا يقطع بحقايقك العلمية . فلماذا لا تترك لي الوقت الكافي لأبرهن لك على ذلك ؟ قطعت علي حديثي ودخلت في موضوع الطب والاطباء وجعلت تمثل بمريض من عائلتي فأطلب القول فيما هو خارج عن موضوعنا . فأرجوك مرة ثانية ان تدعني أتم حديثي ثم انتقده بعد كما تشاء . فاسمع الآن . بما اني فيلسوف . لا اصدق بهذه الحقيقة اعني عدم فناء المادة التي تبنى عليها دعواك .

ان الحقيقة العلمية ليست حقيقة خالدة اي انها قابلة للنقض فهي تعتبر صحيحة في نظر العلماء حتى يصلوا الى حقيقة اخرى تنقضها . فالفيلسوف الذي يرى الحقائق العلمية تتغير من حين لآخر لا يجعل العلم اساساً لاعتقاده .

بيان ذلك . ان الكيماويين كانوا يعتقدون زمناً ان (الآزوت) غاز غير فعال لا يتحد بغازات اخرى . وكانت تلك حقيقة علمية يقول بها الجميع فماذا اصابها اليوم . اصبحنا

كلنا نعرف الآزوت يتحد مع غازات اخرى بواسطة الافران الكهربائية ويكوّن مركبات غازية كثيرة اذن أخطأ العلماء واستمروا على خطائهم الى ما قبل ايامنا هذه بقليل

ولو كنا سألنا من في الارض جميعاً قبل مجيء (كوبرنيك) Copernic هل الشمس تشرق وتغرب حقيقة (اي انها تدور حول الارض) لأجابوك نحن على يقين من ذلك وما كان يقينهم الا ضلالا.

وكان العالم يعتقد الى زمن قريب ان النور اي الشعاع الضوئي يسير في خط مستقيم وان كل شعاع ضوئي مصحوب بحرارة وان الذرة اي الجزء الذي لا يتجزأ غير متحرك

فقد اثبت العلم اخيراً خلاف ذلك وكان الطبيعيون يقولون ان الارض محوطة بطبقة من الهواء يبلغ سمكها اثنى عشر كيلومتر تقريباً وما وراء ذلك فراغ. وظل قولهم هذا حقيقة علمية مدة طويلة ولكنها اليوم نقضت بعد ان أجروا عدة تجارب بواسطة قباب طيارة اعدت لذلك. وبما وصلوا اليه من دراسة النيازك والشهب اعترفوا بوجود آثار هوائية على بعد يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ كيلومتر من الارض حتى اصبح

العلماء يشكون كثيراً في وجود الفراغ . تضاربت النتائج وتناقضت الآراء وتعارضت الحقائق فما كان حقيقة بالأمس أصبح اليوم كذباً مخجلا كأن لم يقم عليه دليل علمي وما يدريك ان ما قالوا عنه اليوم انه حقيقة لا يصير كذباً في الغد وكذلك الحال في التشريح والطب فكل يوم نرى في حقائقها تبدلاً ونقضاً . كانوا ينسبون الفكر والاحساس الى تأثير المجموع العصبي وان الرأس اذا قطعت وفصلت عن الجسم فقدت كل شعور ولكن التجارب اليوم برهنت على عكس ذلك وجعلتنا نعتقد ان للدورة الدموية دخلا وتأثيراً . فقد اجرى الاستاذ (براون سيكوارد) Brawn Sequard الانجليزي التجربة الآتية وهي . انه عمد الى حصان فقطع الشريانين العظيمين اللذين في عنقه وبواسطتهما تتم الدورة الدموية في رأسه وركب في كل منهما انبوبة من المطاط (كاوتش) وجاء على الفور بكلب فقطع رأسه وفصلها عن جسمه وركب الانبوبتين في شريانى عنق الكلب المتصلة برأسه بحيث احكم التركيب والاتصال بين جسم الحصان ورأس الكلب وصارت الدورة الدموية تطوف برأس الكلب

فتروي عروقها. وبعد ان فعل كل ذلك وجد ان رأس الكلب تحس ولم تفقد الشعور كما كان يعتقد علماء التشريح . استدل الاستاذ على صحة تجربته بأنه بعد ان احكم اتصال راس الكلب المفصولة عن جثته بعنق الحصان شاك الكلب في خده بأبرة فاكمش جلد وجهه وظهر عليه التألم ثم ناداه باسمه فحاول الالتفات اليه بفتح عينيه فدل ذلك على انه يسمع ويحس وله في ذلك عدة تجارب غيرت الحقيقة التي كانت ثابتة في علم التشريح واصبح العلماء يعتقدون ان للدورة الدموية تأثيراً قوياً على الحواس والشعور

وكانوا يعتقدون ايضاً ان القلب حساس جداً وانه اذا جرح ولو خفيفاً أحدث جرحه الموت حالا . وقد صارت هذه العقيدة اليوم من المضحكات فان الاستاذ (الكسيس كاريل) **Alexis Carrel** . يجري في القلب عمليات جراحية ثم يخيط المكان وتظل الحياة في الجسم وقد يعيش بعد ذلك طويلا

وفي الجغرافيا كذلك قد تبدل الحال في الاعتقاد اذ كانوا يعتقدون قديماً ان الارض مبسوطة اي مسطحة وكان

ذلك الزعم حقيقة علمية الى ان توصل العلماء الى معرفة فساد هذا الزعم واثبتوا انها مستديرة تشبه البرتقالة واوردوا على صحة ذلك ادلة كافية نقضوا بها ما اثبته سابقوهم واصبحت حقيقة الامس كأن لم يقم على صحتها دليل . استمر القول بان الارض كروية تتسع من الوسط وتنخفض في جهتي القطبين والعالم باجمعه قانع بما تقرر عندهم من الادلة حتى جاء (سوس) Scuss العالم النمساوي الكبير في مدينة فينا فقام يبرهن على ان الارض ليست كروية

— يا لها من فرية ! الارض ليست كروية ؟

— لا تقاطعني يا سيدي في الحديث . ناولني قلم رصاص وقطعة ورق . ان القول بكروية الارض اتضح اخيراً فساده كما اثبت ذلك الاستاذ «سوس» بالبرهان وكان من وراء اثباته حصول فرض ثالث هو المعول عليه الآن عند العلماء الذين يسمونه فرض سوس الهرمي (١) Hypothèse tétraèdrique de Scuss

واني شارح لك كيف وصل الاستاذ الى هذه النتيجة

---

(١) اسميه هرمياً لقرب شكله من شكل الهرم وان كانت اضلاعه مقوسة اذ لم اجد اسما عربياً أوضح منه فى تأدية معناه

ببحثه وكيف برهن أن شكل الارض أقرب الى شكل هرم مقوّس الاضلاع منها الى شكل كرة أو برتقالة

قال سوس في نفسه أن الأرض في الزمن الاول كانت كتلة من مادة دبقة ملتهبة تدور حول محورها وبدورانها حول نفسها اكتسبت شكلا كرويا

وبتوالي الازمان برد سطح الارض فانقبض نحو جوفها وكان جوفها يبرد ايضاً فتوفرت فيه قابلية الانقباض كذلك. ثم وقف تقبض سطح الارض فلم يبق سبيل اليه لضرورة كروية الارض لأن البرودة انتشرت على سطحها انتشاراً متساويا في جميع اجزائه فأوجدت توازن الضغط في تلك الاجزاء فكانت النتيجة أن قلب الارض (الذى كان لا يزال آخذاً في الانكماش) انفصل عن سطحها كما ينفصل لب اللوزة الجاف عن قشرتها. فقلب الارض اذن غير متصل أى غير ملتصق بطبقتها الخارجية (سطحها) لأن السطح وقف بعد استدارته عن الانقباض لتكافؤ الضغط في كل نقطة منه فحدث فراغ بين القلب والسطح. فلأسباب خارجية كالضغط الجوي

وتعاقب الرياح تجعد وتخدد وجه البسيطة فكانت الأودية والجبال (١)

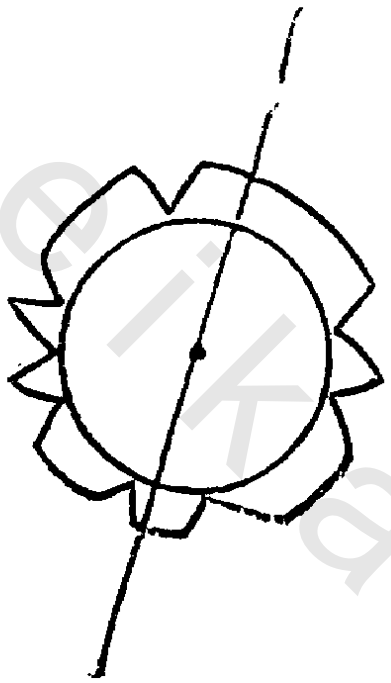

وهنا سأل سوس نفسه فيما اذا كانت الارض بقيت حافظة لشكلها الكروي بعد كل هذه التغيرات فعمد الى امتحان ذلك بالتجربة عدة مرات فأخذ كرة جلد داخلها أخرى من بلاط (فوتبول) Foot-Ball وملأ التي في الداخل بالماء تماماً ثم افرغ بلطف جزءاً يسيراً من الماء وطفق يعيد هذه العملية ويفرغ الماء من جهات مختلفة مقلداً بذلك التغيير الذي يحدث في الكرة الارضية من انفصال سطحها عن جوفها. فاسفرت كل تجاربه عن نتيجة واحدة هي تجعد وتكسر سطح الكرة الخارجي حتى أخذ شكلا هندسياً يشبه الهرم يسمى بالافرنجية Tétraèdre كما يظهر في الشكل الآتي

(١) هذا لا يمنع من أن الجبال تنشأ أيضاً من أسباب داخلية كثيرة

وبعد هذه التجارب المدهشة أخذ سوس يسائل نفسه عما اذا كان شكل الارض حقيقة يشبه الهرم كما أدت اليه تجاربه وهذا هو شكل مبالغ فيه قليلا يمثل نظرية سوس

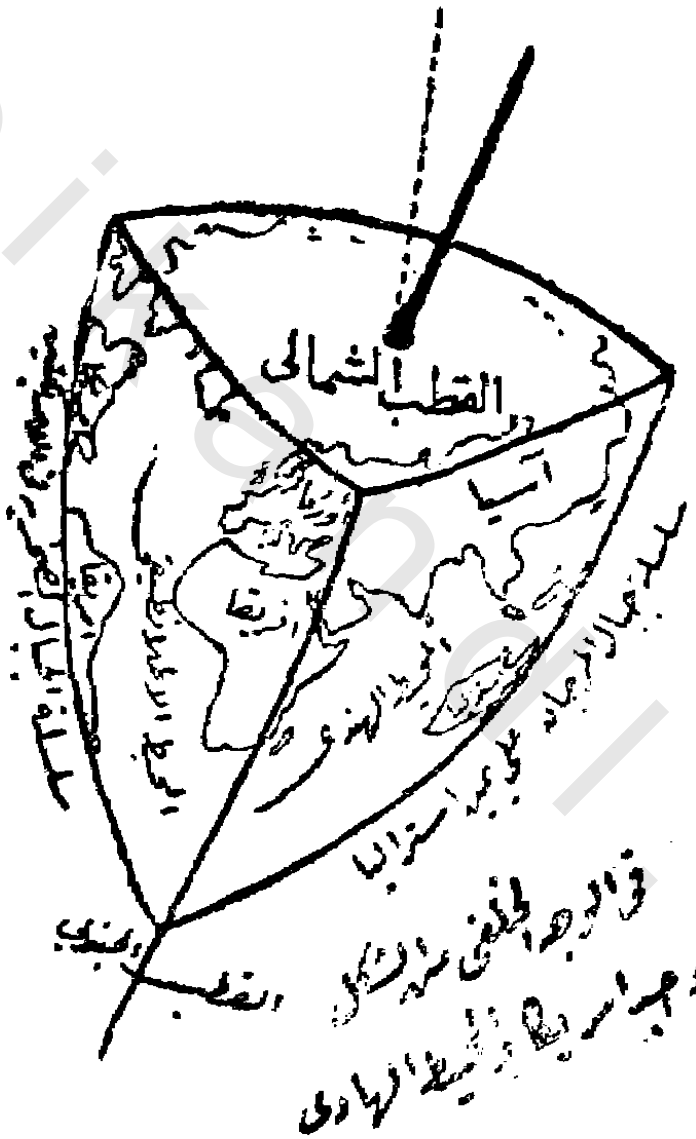

على انه اعتبر اجزاء الشكل المنبسطة بحاراً وارضاً واعتبر اركانه جبالاً وفي الواقع يوجد على وجه الارض ثلاث سلاسل كبرى من الجبال هى الجبال الصخرية التي تشق

امريكا ومرتفعات الهند ومدغسكر. ثم سلاسل جبال المرجان الاحمر وهي طويلة جداً في شرق استراليا. فهذه السلاسل تكوّن اضلاع الهرم وبالتالي كان جزء من امريكا في وجهة الهرم اليسرى. وكذلك اوروبا وافريقيا على يمين امريكا في الوجهة نفسها. وكانت اسيا في الوجهة اليمنى وكذا استراليا. واما الجزء الباقي من امريكا فهو في الوجهة الخلفية (المستترة) التي تحوى المحيط الهادي. والمحيط الهندي اسفل اسيا والاطلنطيقي بين افريقا وامريكا وبذلك ترتسم الكرة الارضية امامنا كما هو مبين في الشكل

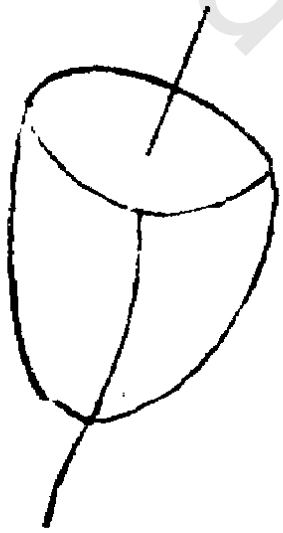

يطلب سوس من العلماء ان يلاحظوا ان القارات واسعة من اعلاها ضيقة من اسفلها فأمريكا وافريقا حتى آسيا فهي

تنتهي جنوباً على شكل سنان اي انها آخذة اشكالاً مثلثة تقريباً قواعدها في الشمال ورؤوسها في الجنوب وهي دليل على ان شكل الأرض هو كما يقول لان تلك الرؤوس المنتهية بها القارات جنوباً لم تتسع الا لأنها لم تجد في جنوب الارض محلا يسمح لها بالاتساع . فاذا ثبتت صحة نظريته يكون القطب الشمالي منبطحاً ايما انبطاح بخلاف القطب الجنوبي الذي ينتهي كالسنان .

مكثت هذه النظرية مزعزعة في نظر العلماء حتى ايدها اكتشاف القطبين فثبتت صحتها نهائياً فقد وجد (امندسن وبيرى) Amundsun & Peary عند اكتشافهما القطب الشمالي متسعاً عظيما من الأرض بينما (اسكوت) Scot وجد في القطب الجنوبي عدداً كبيراً من الآكام والجبال الشامخة والبراكين

أرأيت يا سيدي كيف اخطأ العلماء وان الأرض ليست كروية ولو اغضبك على اني لا اقف بك عند هذا الحد وليس ما قلته للآن الا قليلا من كثير لأريك ان الحقائق العلمية

لا دوام لها بل هي حقائق وقتية لا تلبث ان تنتقض فلا حقد اذن على فيلسوف لا يعول على حقيقة علمية تتغير على كر الأيام ولا يجعلها كما تفعل انت اساساً لمعتقده . حجتك على نفي وجود الاله ان المادة لا تنعدم . فكيف تطمع ان تقنعني بذلك فقط ويفوتك انهم يشتغلون الآن في كلية (السربون) Sorbone بباريس بالبحث في المادة وان التجارب التي اجروها بواسطة الراديوم Radium جاءت بنتائج عجيبة حتى صار العلماء في شك مريب .

قلت في ليلة مضت انك واثق تمام الوثوق من صحة ارائك كما ابديت رأياً . تناديت في صلفك واعجابك بفصاحتك ونسبتني الى الغباوة فلم تألُ جهداً في توطيد دعواك بأنك على الحق وانني على الباطل . أرأيت اليوم انك قد بالغت وتغاليت ليلتئذ وانني لست غبياً كما كنت تتصور لتصديقي بالله . ألم يكن الشك خيراً لك من ان تبرم الحكم بما لا تعلم . ان الشك ليس دليلا على الجهل وان العلماء كثيراً ما تعتريهم الشكوك الا انت فأنك دائماً تجزم بصحة دعاويك . قال الاستاذ (منتاني) Montaigne الفرنسي الشهير : ان الشك خير وسادة يستريح

عليها ذو الفكر الصحيح والعقل الراجح . ومن رأيه ان الأنسان لا ينبغي له ان يجزم بصحة اي حقيقة كالحقائق التي تدعيها انت ويقول فى ذلك : لا ينبغي ان تقول اذا سئلت عن شيء تجهله « لا اعرفه » لان هذا توكيد لجزمك بعدم المعرفة والأولى ان تظهر الشك والتردد

لم ارد بما قلته لك آنفاً ان ابرهن لك على وجوده تعالى وانما لأبرهن لك انك مخطيء في زعمك ان في استطاعتك انكار وجود الله

لا اناقشك في امر الروح ولا في العالم الجسماني ولا الروحاني وحسبي ان اشرح لك نظرية الفيلسوف (برجسون) في الحركة وعليك ان تستخلص النتيجة بنفسك

هنري برجسون Henri Bergson الذي ليس بغبي مثلي ولا واثقاً من نفسه ثقة عمياء مثلك سأل جمعاً من العلماء قائلا هل تعرفون ما الحركه ؟ ان العلم حركه والحياة حركة فأول شيء يجب علينا ان ندرسه هو الحركة . فهل درستموها ايها الاساتذة ؟ قالوا نعم لا سيما في هذا العهد ثم اروه اشرطة واجهزة

(سينماتوغرافية) تمكنهم من الحصول على (٢٠٠) نقلة في الدقيقة الواحدة (١)

فنظر (برجسون) الى (الفلم) Film اي الشريط السينماتوغرافي وقال اين توجد الحركة في هذه الصور الثابتة واردف قائلا لا سبيل لدراسة الحركة على الشريط لان الحركه عليه هي المسافة التي قطعها الجسم زمناً ما بين سكونين متواليين في صورتين متتاليتين كما لو وضعت ذراعك على مائدة ثم رفعته قليلا . فليس هو متحركاً في حالة وضعه على المائدة ولا بعد رفعه وانما الحركة حصلت بين السكونين « فخلة » رفع اليد في تلك الفترة هي الحركة وهذا لا اراه على الشريط

---

(١) النقلة السينماتوغرافية هي ان تحل صورة محل اخرى على الشريط المسمى «فلما» Film كما ترى رأي العين . وبيان ذلك ان الشريط السينماتوغرافي شريط يرتسم عليه عدد من الصور لكل حركه بطريقة التصوير الفوتوغرافي المعلومة . عليه تتجزأ كل حركه الى اجزاء كثيرة متتالية تظهر كما كانت وقت التصوير عند ما يضعون الشريط (الفلما) في الآلة المعدة له وتسير بسرعة امام نور الجهاز فتقع أشعته على الملاءة البيضاء حاملة تلك الصور المتتالية بالسرعة عينها فتظهر للراءي كأنها أجسام متحركه

ارجو ان تكون متيقظاً لدقة ملاحظة هذا الفيلسوف قال العلماء (لبرجسن) اتحب ان ترى الحركة ؟ قال نعم فوضعوا الشريط فى الجهاز ثم اداروه فأجاب . انكم لم تستطيعوا ان ترونى الحركة الا بعد ان استولدتموها بالجهاز فضلا عن اني لم ارَ في ذلك كيف تدرسونها ولم استفد شيئاً جديداً . انكم تتعبون انفسكم لتنقلوا اليّ صورة رجل يتحرك او نحوه فما حاجتى الى ذلك الا يكفينى ان انظر الى رجل يمشي او ذبابة تطير وهل مجرد الرؤية عندكم هي الدراسة . قالوا عفواً ان الجهاز يمكننا من دراسة الحركة فيجعل في استطاعتنا ان نراها بطيئة او نزيدها سرعة

قال (برجسن) هذا خطأ لان الحركة اما بطيئة واما سريعة ولا يجوز لكم ان تبطئوا السريعة او تجعلوا البطيئة سريعة لأنكم بعملكم هذا تشاهدون حركات اخرى غير التى تريدون درسها فلكل حركة زمن محدود تمضي وتذهب بذهابه واسترسل في الحديث (برجسن) قائلا

انكم تحاولون تبيان كل شيء وتحسبون انكم تبرهنون على صحة كل شيء وانتم لا تستطيعون اثبات شيء من الحركة

التى هي اساس كل شيء عندكم . اقول لكم اني فيلسوف وما اظمأنا معشر الفلاسفة الى الاستقاء من الموارد الثابتة لانا لا نبحث الا عن الحقائق الخالدة ولا نعول الا عليها ولا اجد في علمكم ما اقنع به وتطمئن نفسي اليه فحقائقكم وادلتكم على شفي جرف هارٍ

أمامى حقيقة لا تمارى ولا يتسرب اليها الشك . تلك الحقيقة هي اني موجود وحي بدليل حسي ووجداني . نعم انى أحس واشعر بوجودي . أؤكد صحة ذلك حتى لو كنت أعمى وأصم وابكم وأشل فهذا الشعور حق ونكرانه مكابرة في المحسوس . على ان هذا الشعور نوع من الالهام غير مادي وهبة من احساسنا الداخلي بالحياة لا تحتاج للعقل

فالمجنون جنوناً عميقاً يشعر بأنه حي والموت وحده هو الذي يفقده هذا الشعور . ولو بترت ذراعه وهو حي لأحس بالبتر ولكنه لا يحس به لو كان ميتاً

فلك أيها السيد ان تستنتج الآن ما تشاء مما سمعت وماذا عساه ان يكون أصدق من الشعور الفطري والوحي الباطني . وهل يستطيع عاقل مهما بلغ به التعنت ان ينكر ذلك

الالهام الذي يجعله يشعر بالحياة ؟ والا فما الفائدة من مناقشتنا هذه ؟ . ترى ان ذلك الالهام غير مادي فلماذا لا تكون الروح موجودة كالالهام وكذلك الله سبحانه وتعالى

أظنك لاحظت اني لم أقل في كلامي ان الله موجود . ان الكلام في هذه المواضيع ليس من الهنات الهينات والناس لا يزالون في غياهب الجهالة تائهون فلم يهتدوا الى كثير من الحقائق الخالدة رغماً من ان سيرهم عشرين قرناً في سبيل التمدين اسمع ! اسمع ! ان أقل الناس جهلا هم المؤمنون لانهم لا يستسلمون الى الغرور ولا يدعون معرفة كل شيء بينما غيرهم يزهون بادعاء العلم والمعرفة ويتصدون لبيان كل شيء فيقفون ما ليس لهم به علم . والاغرب من أمرهم اجتراؤهم على انكار وجود الله زاعمين ان العقل أساس اعتقادهم . ويعلم الله مقدار بعدهم عما يقره العقل الصحيح

لدينا الكثير من البراهين وهي وان لم تكن كلها متينة فليس منها الرديء وهي كلها تدعونا الى الاعتقاد والايمان بالله وليس عندنا برهان واحد يدعونا الى الكفر به . ومع ذلك لا نزال نتعامى عن براهين المؤمنين ويحاول غيرهم ان يخلق من

الوهم برهاناً . فأي الفريقين أحق بالهزء والسخرية . انكم أيها الماديون تصمون المؤمنين بأنهم عمي أغبياء يصدقون لغير سبب وهم منكم يضحكون اذ لا يجدون لديكم من الاسباب ما يدعوكم الى الجحود . فما أشد عنادكم وما أغرب شانكم أيها الماديون

اسمع الان نظرية بسكال Pascal العالم الفرنسي في الرهان ولا تسأم السماع فهي نظرية لطيفة مروحة ولا تظن اني ازج بك في بحر من النظريات لأردك عن دينك فلم اكن مبشراً انما قصدي الوحيد ان ابرهن لك انك انت المخطيء لمحاولتك جحود الآله مع انك لست على بينة مما تقول . وما ثقتك العمياء بنفسك الا غرور وبهتان

قال (بسكال) العالم الطبيعي والمفكر الشهير الذي كان مؤمناً ان حياتنا الدنيا قصيرة مهما طالت بجانب الحياة الابدية . فاذا راهنا بحياتنا القصيرة ان الله موجود وقضيناها في عمل الخير والاستقامة على نحو مايدين به المؤمنون فغاية هذا الرهان فيما بعد الموت احد امرين فاما ان يكون الله موجوداً فنفوز بما وعد به المتقين من عباده ونغنم الحياة الخالدة في دار السلام

ونحظى بهذا النعيم المقيم وحينئذ نكون قد كسبنا شيئاً متناهياً في العظم بشيء لا يذكر بجانبه واما ان يكون الله غير موجود (وهذا ما لا يطمئن له قلب) فلا نخسر الا حياتنا الدنيا ان صح ان نسمي ذلك خسارة بألا نحصل على مكافأة على اعمالنا بعد الموت ولكننا قد نكون قضينا حياتنا في العيش الطيب والعمل الصالح وتجنبنا فيها الأذى وفعل القبيح ونبذنا كل ما تحرمه الأديان وينزعج منه كل ضمير حي ونفس انسانية كاملة انك تعترف معي ان الديانات ترمي لغاية واحدة هي سعادة الأنسان الا تراني اسعد حظاً بإيماني بالله من كافر يجحده ؟ اني اعمل الطيبات في حياتي الدنيا واجتنب المنكر والبغي وانا قرير العين بعيد عن وخز الضمير وقلق الخاطر ومع ذلك لا اقنط من الجزاء الطيب الذي يرجوه المؤمنون بعد الموت

بينما انت معذب في هذه الحياة التي تراها هدفاً للردى وشركاً للاكدار لا تجد فيها تعزية ولا سلوى عما ينغصك ويكدر صفوك من صروفها . ينهلع فؤادك في الشدائد والخطوب ولا ترى ملجأ لتفريج كربك فلا إله يناجيه ضميرك وتعلل النفس برحمته ولطفه وتدعوه ليكشف عنك ما تعانيه . ثم اذا

فكرت فيما بعد الموت كانت حالك اسوأ وانكد فبعد ان ينطفيء سراج حياتك لا يكون امامك الا أحد أمرين فاما الظلام الحالك الابدي كما تعتقد واما ان تلقى الله الذي تنكره الآن فيدخلك نار جهنم خالداً فيها حيث تجد ما أعده للكافرين من أنواع التعذيب والتنكيل فما اتعس الحياة عندك

يا عجباً كل العجب كيف تقولون معشر الماديين في التهكم بالمؤمنين ان اساس الدين عندهم الايمان وهو مبنى على التسليم المطلق

أ فليس اساس العلم التسليم ايضاً بتلك التجارب التى لا تلبث ان يظهر خطاؤها على ان المؤمن مؤمن بناء على ما صح عنده من البراهين بتدقيق النظر والالهام الفطري . فعلى اي شيء يستند العالم منكم ؟ أعلى انه يحاول شرح كثير من الظواهر شرحاً سطحياً ثم هو يعجز عن بيان الأسباب الأوليه ؟ كأن يقول ان القوة ازلية لأنه لم يعلم لها مصدراً . ألم يكن الأعتراف بالعجز ونسبتها الى الله تعالى اولى من محاولة شرحها بما لا فائدة فيه ولا يقنع باحث . أليس الاجدر اذا سئلنا : لِمَ وجدت القوة دائماً وكيف خلقها الله . ان نجيب

بهذه الصراحة . ان ادراكي يقصر عن فهم كنه ذلك

اما قولكم ان المادة لم تخلق لان العلماء عاجزون عن خلقها وانها لا تنعدم لان العلماء عاجزون عن اعدامها فلا يستنتج منه منطقياً انها لم تخلق او انها لا تنعدم (١)

(١) ان أقوى اعتراض يتمسك به الشبان الاذكياء وقت مماراتهم في اثبات وجود الاله هو قولهم كيف تخلق المادة من العدم اي كيف يوجد شيء من لا شيء . وكيف تنعدم هذه الكائنات المحسوسة يوماً ما . ثم يبنون على اعتراضهم هذا نكران وجود الاله وهم يحسبون ان ذلك يجعلهم من ذوي اللياقة والذكاء الحاد فيتزرون بنشره في كل مجتمع وناد . ويتناقله عنهم المتفيقهون والمتفاصحون المولعون بالتقليد الاعمى وان لم يكونوا من أهل الحق . ان هذا الاعتراض أصبح اليوم من السخافات المضحكة بعد ان أثبت العلم امكان انعدام المادة فقد توصل الاستاذ «جستاف لوبون» ببحثه وتجاربه الى ان كل شيء موجود يتحول الى «الاثير» اي العدم ولا تخلق مادة جديدة . أثبت ذلك في كتابه المسمى بتطور المادة **l'évolution de la matière** وبرهن على صحته بما أجراه من التجارب العديدة على كيفية تطور المادة من حالة الى حالة الى ان ينتهي أمرها الى «الاثير» وهو ما نسميه بالعدم

فيسرنا ان نقدم لهؤلاء الشبان الاذكياء أولي الحصافة والفهم الدقيق ان العلم أثبت اليوم «ان الشيء يصير عدماً» وقد كان هذا مستحيلا بالامس أمام قرائحهم المتوقدة وعقولهم الراجحة . ولعل

انك لا تدرك ما للفيظة مؤمن الصغيرة من الاهمية الكبرى والمعاني السامية . ان دعامة حياة المؤمن الأعتماد على الله والرضى بقضائه وقدره. فالمؤمن لا يبالي بالمصائب مهما تعاظمت ولا يكترث بالخطوب مهما تفاقمت بل يقابلها بصدر رحب وثغر باسم .

لم أقل ذلك حتى بادرني صاحبي الفيلسوف (وكان من قبل مستكيناً واجماً يحمر لونه تارة ويصفر اخرى) ظاناً انه أهتدى لموضع ضعف مني او صادف مقتلا يقضي عليّ منه فقال بعد ان قهقه

— ما هذا الهذيان ؟ افي معرض الجد تقول هذا ؟

أرأيت اذا حلقت فوق رأسك طيارة الليلة وانت جالس بين اهلك وذويك فالقت عليكم قذيفة اهلكت من معك الا

عكسه . اى ايجاد المادة من العدم وقتاً ما . لا يعتبر مستحيلا اليوم فى نظرهم كما هو القياس . ومن أراد الوقوف على صحة ما أقول والاطلاع على النظرية باكملها فعليه ان يقرأ الكتاب باللغة الفرنسية . وارجو ان يوفقنى الله قريباً الى تلخيص هذا الكتاب الضخم وابرازه للجمهور باللغة العربية فى حجم رشيق ومع ذلك أقول باخلاص وارتياح انه ان سبقني الى هذا العمل سابق فله منى جزيل الشكر وعاطر الثناء

انت فقد بقيت بذراع وفخذ والأخريان مبتورتان فهل كنت تظل منشرح الصدر باسم الفم شاكراً ربك على ما انزل عليك من نعمه ؟

— ما اشط امثالك عن محجة الصواب اخاطبك على وجه الأطلاق وانت تمثل لي بالشاذ الغريب ولنفرض مع ذلك ان ما قلته يحصل لي الليلة انا المؤمن الصادق الأيمان فهل تظن اني لا استمد التجلد من ايماني على ذلك المصاب اواني لا اشكر الله على ما اصابني اذ لم اخرج منه في حالة اسوأ بل اني لأعد نفسي كنوداً اذا لم اتحمله برباطة جأش لأن عائلتي ان هلكت بذاك المصاب الآن او على فراش الموت بعد خمسين عاماً فسيان. فنهاية كل حي ان يموت وان تنوعت الاسباب وما الخمسون عاماً الا هباء بجانب الحياة الخالدة والنعيم المقيم نعم احمد الله واشكره اذ بقيت بعد ذلك حياً اتمتع بالنظر وما لم افقده من حواسي واعضائي حتى يوافيني أجلي واني الموقن بملاقاة اهلي في الدار الآخرة وقد فازوا بالكرامة والجزاء العظيم فيكون لي من ذلك نوع من التأسي والسلوى. ويحك لا اقول ذلك تلاعباً بك امام السادة الحاضرين الذين ضحكوا من

مثلك الذي ضربت (انه لقول فصل وما هو بالهزل)

انك لتشاهد كما يشاهد غيرك ان المصائب كثيراً ما تحل بالمؤمنين فلا يتزعزع لهم ايمان ولا ينهلع لهم قلب لا سيما البائسين منهم فما اصبرهم على صروف الحوادث وتقلبات الزمان تعرفهم بايمانهم يلهجون بحمد الله وتسبيحه في اشد الأزمان ولهم في ذلك تصرف غريب وشعور مؤثر يدق عن فهم الأذكياء فتراهم يقارنون حالهم بحال من هم اسوأ منهم ومصابهم بما هو اعظم منه فيهون عليهم ما هم فيه ويجدون في ذلك ما يوجب الشكر

هنا تعندم وجه صاحبنا الفيلسوف غيظاً حتى كاد الدم يخرج من عينيه وكان مرتديا بزة (بدلة) زرقاء وقميصاً ابيض وهذا ما حملني على الظن بأنه تكلف الضغط على اعضائه ليحمر وجهه فيحاكي بمجموعه الراية الفرنسية فعلى ذلك انتفخت اوداجه وخاطبني منفعلا قائلا

— اسمع . اذا سلمنا بوجود الاله فلا بد ان نسلم بما يجب له من الكمال المطلق . فالله اذن كامل وبكماله يعلم الغيب فيعلم ما سأعمل . وعلمه هذا لا يجعلني حراً اعمل بغير ما علم وان

عملت ما يناقض علمه فاما ان يكون ذلك تكذيباً له او مخالفاً لأرادته وكلاهما مستحيل

اذن لا يمكنني ان اعمل الا ما سبق به علمه وارادته فأعمالي مقيدة بعلمه وارادته ومع ذلك يعاقبني على السيئة منها ألم يكن ذلك ظلماً بيناً

— كلا لا اعدُّ ذلك ظلماً انما هذه مغالطة منك . انت تقول ان الله كامل . فهذا صحيح . وتعترف معي ان الانسان غير كامل . فكيف تريد ان يدرك حقيقة صفات الكامل من ليس بكامل ؟

فيجب عليك اذن ان تعترف بجهلك معنى كمال الله بل انت تجهل معنى لفظ الكمال .

ان كمال الله لا حد له وصفاته كلها مطلقة بخلاف الصفات الأنسانية فالرحمة مثلا من صفات الله وقد يتصف بها الأنسان على قدر مواهبه . فهل تتصور ان رحمة الله كرحمة الأنسان ؟ انك لن تستطيع ان تتصور سعة رحمة الله التي لا نهاية لها مهما اعملت الفكرة لان عقولنا قاصرة محدودة فكيف تستطيع الأحاطة بما ليس بمحدود .

فسكت هنيهة ثم قال

— هذا صحيح ولكن اذا كان الله هو الخالق للكائنات ومما خلقه الأرض فليس في خلقها دليل على احكام تدبيره وكمال قدرته كما سأريك . انت تعرف ان محور الأرض ليس رأسياً بل هو مائل بما يكون زاوية حادة قدرها ٢٣ درجة . هذا الميل ينشأ عنه اختلاف طول الليل والنهار وقصرهما على سطح الأرض كما هو السبب في شدة البرودة المتناهية في بعض الانحاء مثل سيبيريا بآسيا مما جعل ارضها غير صالحة للزراعة وشدة الحر في انحاء اخرى كخط الاستواء فلو كان المحور رأسياً لحصل التوازن بين الصيف والشتاء واستوى الليل والنهار على جميع انحاء الأرض وكان جميع سكانها اهناً عيشاً مما هم عليه الآن . بل اين احكام تدبيره في جعله الماء يغمر اربعة اخماس الأرض وما فائدة هذا المسطح العظيم من المحيطات ؟ اي حكمة في ذلك ؟ لا أرى الا انه اراد بذلك ان يضيق علينا سبل الحياة .

— عيبك أيها السيد انك لا تنظر الى الأشياء الا من وجهة واحدة . تقول ان محور الارض مائل ومعظمها مغطى بالماء

لدرجة تضائق الانسان وتستنتج من كونها كذلك انها لا تدل على كمال خالقها واحكام تدبيره . هذه دعواك . ولكن من أين لك ان الله خلق الارض لاجل الانسان ؟ ومن أين لك ان ميل المحور الذي تراه مضايقاً له ليس بضروري لحياة الانسان وأمم الحيوان التى تسكن البحار ؟ . انك اعترفت ان اربعة أخماس الارض مغطاة بالماء . أليس من الجائز ان الله حين خلق الارض علم حاجة أمم البحار الكثيرة بالنسبة لنا فدبر خلقها على ما يناسب حاجتها ويضمن بقاءها وانت تعلم أننا لا نشغل الا جزءاً يسيراً من خمس الارض اليابس الذي يشاركنا فيه كثير من أمم الحيوان المختلفة

وما يظهر لك عيباً ونقصاً في التدبير له فى الحقيقة حكمة بالغة استأثر بعلمها الحكيم الخبير (وما أوتيتم من العلم الاقليلا) على أني لا أفهم معنى من كونك دائماً تنسب كل نقص ظاهري او ما تزعم انه خطأ الى الله تعالى ولا تنسبه لجهلك وقصر فهمك عن ادراك اسرار حكمته

— اجمالاً . انك تحاول تفهيمي ان الله خلق الارض للحيوان الاعجم

— ماذا يزعجك ؟ ان كبرياء الانسان يدفعه للظن دائماً انه اذكى المخلوقات وان الارض لم تخلق الا له وحده ارجو ألا تؤنبني لاني خالفتك فى رأيك . وقل لي من فضلك ما الذي حملك على ذلك الرأي . ألأن الانسان أوتي قوة الاختراع فهو يبنى المساكن وينسج الملابس فما ذلك على ما أرى الا لضعفه والحاجة وحدها هى التى دفعته الى ذلك بينما صنوف الحيوان غيره لم تدفعها الضرورة للالتجاء الى الملابس والمساكن فضلا عن انها أقدر منا على تحصيل رزقها . تسلك سبل ربها ذللا . مطلقة الحرية . وتسبح بحمده بكرة واصيلا . وربما كان لها بيان لا نفقهه وعلوم لا نعرفها

نعم يوجد من بين صنوفها ما تشعر بضعفها وتدفعها الحاجة الى الاختراع ايضاً فتتخذ لها في الاشجار وجدر المنازل وفي جوف الارض بيوتاً وحجوراً لتأمن فيها كالارنب واليربوع والنملة ونحوها

أيظن الانسان لاختراعه التلغراف والتلفون انه أرقى فطنة من الهر مثلا لانه يستطيع ان يكلم آخر على بعد شاسع . وان الهر لا يستطيع ذلك . هل اتاك نبأ « التليباتي » Telepaty

(مواصلة الافكار). يظن العلماء انهم وصلوا الآن الى اكتشاف خاصية جديدة في مواهبنا هي القدرة على ايصال افكار المرء الى انسان آخر بعيد عنه فيعرفها كما لو سمعها من فمه او قرأها في خطاب منه. كأن بينهما تلغراف لا سلكي يتبادلان به الافكار ويعرف أحدهما بهذه الخاصية ما عند الاخر. على أنها لا توجد في عموم بني الانسان بل في افراد منهم لديهم استعداد خاص. وقد أجريت عدة تجارب في فرنسا واميركا والهند أيدت صحتها

يقال ان سيدة من أسرة شريفة باميركا اصابتها نوبة عصبية فقالت ان ابنها يموت في طريقه الى اميركا. وفي اليوم التالي لقولها اتضح ان ابنها الذي كان في تلك الساعة على ظهر السفينة «تيتانيك» مات مع من ماتوا منها غرقاً. ويقول الباحثون في هذا الفن الطريف ان اخبارها ناشيء من رسالة فكرية بعثها اليها ولدها وهو على وشك الموت

لست اجزم بصحة ما يقولون بالرغم عن التجارب التي اجروها كما لا أتعرض لتفنيد آرائهم. ولكنني أقول اذا كان في بعض بني الانسان قوة التراسل الروحاني فلم لا يكون

من بني صنوف الحيوان ما يتمتع بهذه المزية فتغنيه عن اختراع طريق للتراسل وتبادل الأفكار كما اخترع الأنسان حين اضطرته الحاجة . وما يدريك ان قطتك التي خرجت من هنا الساعة في تراسل مع قطة بيتنا لتخبرها انك غضبان حانق عليّ لأني لست على رأيك في كل شيء . واذا اردت المزيد فما عليك الا ان تقرأ كتاباً في الحيوان لتعرف مقدار ما منحها الخالق القدير من المواهب الدالة على إحكام صنعه وبالغ حكمته ولك فى النملة والنحلة مثلان عجيبان . أنظر في الخلية فترى مُلكاً منظماً بالغاً حد الاتقان لا تستطيع ان تأتي بمثله . والمتتبع أحوال النحل وسير معيشته يدهش حينما يراه لا يعيش في فوضى بل يجده قد نظم حكومة تقيم منار العدل وتفصل فيما يقع بين افراده من الخصومات

يرى الانسان بعينه ويتدبر بعقله ما يسير عليه بعض أمم الحيوان من عجيب النظم وحسن التصرف الذي قد يراه يفوق نظامنا ثم لا يسمح ان يحكم لها بشيء من الذكاء ويستأثر به لنفسه اللهمّ الا مغالطة بنسبة ذلك الى غريزة فيه . فهل ترى أيها السيد ان الغريزة كافية ليعمل العنكبوت ما يعمل مما

يحير الالباب . واذا لم تكن قرأت شيئاً عن العناكب فأعمد الى ما فاتك الآن وقارن ما تقف عليه من اعماله وتصرفاته بما تستطيع ان تتصرف فيه أنت بذكائك وعلمك . ان العنكب متى اصطاد صيداً كذبابة او بعوضة او ما أشبه يعرف بالضبط في أي شريان يلدغه بل في أي موضع من الشريان ليشل حركته ويتسنى له اكله على مهل في يومين او أكثر والصيد لا يفقد الحياة فيعفن ولا يستطيع الخلاص منه . بأي غريزة يهتدى العنكب للدغ كل حشرة في مكان يختلف عن الاخرى ولا يخطيء في اصابة هدفه ولا ينبو .

ولعمرك اى جرّاح يستطيع اجراء عملية دقيقة ناجحة كهذه فهل لا تزال مصراً على ان الانسان مستأثر بالذكاء ؟ او انه اكمل الحيوان ذكاء ؟

وهل تطمع بانفعالك ان تحولني عن رأيي الى رأيك فتشط بي الغرور الى القول بان الحيوان مجرد من كل ذكاء وفكر ، ولا يوجد فيه سوى غريزة يهتدى بها كيف يعيش لعلك تبني رأيك على ان قوة الذكاء راجعة الى كبر المخ فلئن كان هذا اعتقادك فهو وهم فاسد يدل الحس على بطلانه والا

للزم ان يكون الفيل والحمار اذكى من القرد والكلب (١).
فاذا سلمت معي ان الذكاء ووفور العقل لا يتوقفان على كبر المخ
وصغره سهل علينا ان نعتبر قوة الذكاء والادراك في كل
اصناف الحيوان بما تأتيه من الأعمال. زد على ذلك اننا نجهل
تماماً حقيقة كثير من الحيوان لاسيما صغير الحجم منها. تظن ان
الانسان اكمل الحيوان عقلاً وذكاء مع جهلك صنوف الحيوان
الأخرى وان رأيت من اعمال بعضها ما يدهشك وتعجز عن
محاكاته. ربما يكون كذلك الانسان الكامل ولكن اين هو
الانسان الكامل مع انه لا يتم كماله الا بالوقوف على طبائع
الحيوان اجمع.

---

(١) روت احدى الجرائد الفرنسية الطبية المسماة Aesculape
منذ زمن ان رجلا المانياً عنى بتربية كلب وتعليمه حتى كان منه انه
ادرك معاني القراءة والكتابة ويبدي ذلك بدقات معدودة يدقها بيده
رمزاً لكل حرف ويتبادل الحديث بذلك مع سيده وسيدته وكان من
امره انه يجري عمليات ضرب وقسمة وجزر وشاعت هذه الحادثة فأم
الاطباء من سائر الارجاء مكانها لمشاهدة ما يعمله ذلك الكلب فبلغ
منهم الدهش مبلغه ومن اراد تمام الوقوف على الرواية هذا الكلب
با كملها فليطلب ذلك الي

هذا وقد صار صاحبنا الفيلسوف في حالة يرثى لها لاسيما انه كلما التفت الى الحاضرين رأي انظارهم متجهة اليه ساخرة منه فأراد ان يتخلص من المناظرة دون ان يعترف بالغلبة والخذلان فقال

— انك لفصيح لبق لذا تراني استمع اليك بلذة وانبساط فلنعد الى ما كنا فيه الا تظن ان الجاحد اكثر متعة بهذه الحياة من المؤمن لأنه يمتع النفس بما تشتهي ولا يعتبر الحدود والتحريم الا اصطلاحات اتفق عليها فلا يصده عن التمتع بشهواته تحريم ولا يردعه عن فعل منكر وعيد الا ترى ان فيما حرمته الأديان ما يدعو كثيراً من المؤمنين وغيرهم الى ارتكابها لان تحريم امر يوجد لذة في النفوس تميل بها اليه وشهوة تدعو الى انتهاكه ولقد صدق القائل (أحبُّ شيء الى الانسان ما منع) ولو عمل الناس كلهم صالحا واستقاموا كما تأمر الأديان لانقطعت اسباب الرزق عن الكثيرين كالقاضي والمحامي والشرطي وغيرهم

اراك يا عزيزي تحوم حول الموضوع ولا تخلص الى نتيجة ويلوح لي انك الآن تتحاشى المناظرة لئلا تعترف

بالعجز والتسليم

— اتظن اني . . . . ؟

— مه اسمح لي ان اتكلم هنيهة لأجيب على سؤالك تقول ان التحريم وحده مرغب في ارتكاب المحرمات وجاذب اليها . يجوز انك مصيب ولكن لسنا في شيء من ذلك الآن على أني اقول لك ان الجاحد لا يجد لذة في ارتكاب تلك المحرمات بأعترافك السابق لأن اللذة في التحريم نفسه وقد انعدم التحريم في عرف الجاحدين

وبقي ان تلك اللذة موجودة للمؤمن لو سولت له نفسه اقتراف ما حرم عليه فأي الرجلين اسعد حالا واوفر حظا في التمتع بملاذ الحياة ؟ وانت ترى ان المؤمن ان عمل صالحا يشعر بلذة وارتياح اذ امكنه ان يكبح جماح نفسه عن الشهوات البهيمية والترقي بها الى الكمالات الروحانية وان هو اطاعها فيما تنزع اليه من الشهوات تضاعفت عنده اللذة التي يتمتع بها الجاحد في زعمك

هنا ارتبك الفيلسوف المادي وتقطعت به الاسباب والحجج وحاول ان يخفي من خزيه بستار المداعبة والمجون فقال

— اي نعم . سعيد المؤمن في حياته ممتع بلذاته كما تقول بلسانك مع اعتقادك اني انا الجاحد امرح في اللذات والشهوات مطمئناً لا يزعجني وازع دين ولا يصدع وجداني نازع خوف من عقاب فاعرف كيف اقضي اوقاتي بسرور وغبطة واغتنم الفرصة متى سنحت بانشراح وابتهاج . ان قلبك يعترف معي بذلك وان بالغت في انكاره بلسانك وانت المؤمن المكبل بقيود الدين واوامره ونواهيه يتسلط على وجدانك في كل ساعة من ساعات السرور آلاف الخواطر فلا تجد لذة خالصة ولا تنعم نفسك بما تشتهيه أليس ذلك حقاً ؟ فلتهنأ بايمانك وتمتع بما تعانيه في كبح جماح نفسك وترويضها على الفضائل ؟

(وهنا اورد مناظري امثال للمخازي والفجور لم استحسن ذكرها) قلت :

— كم انت غريب في افكارك وتصوراتك كما انك غريب في اسلوب مجادلتك تمزج الجد بالهزل ولا تقف عند حد مخافة الوصول الى منتوج يرغمك على التسليم لمناظرك فاذا سمعت جد الحديث تبلبل لسانك واضطربت عباراتك وعجزت عن نقض

ما أقيم من البراهين واذا لاح لك ما تتخذه دخلا للهزل تدفق لسانك بقول الهزؤ والمجون والتصورات الشاذة المبنية على الظن الذي يجعلك تتهمني بأني اقول بلساني ما ليس في قلبي. فمن اين لك ذلك ؟ وهل هذا اسلوب منطقي جديد في المجادلة ما فائدة تفاصحك في ايراد عبارتك الأخيرة وأي أهمية لها في اثبات وجود الاله الذي هو اساس موضوعنا ؟ ؟ ؟ . .

ألا ترى انها لا تبلغ ان تكون مسألة ثانوية في الموضوع بل تكاد تكون خارجة عنه ؟ وكنت اود لو اجهدت نفسك وحددت شباة فصاحتك وبلاغتك في جد القول وجوهر الموضوع . وهل تظن ان كل ما يلذك وتشتهيه يجب أن يلذ كل انسان ويشتهيه ؟ أو أن الحظ والنعيم فيما يفعله الجاحد وحده ؟ وهل تطمع ان تقنعني بذلك ؟

ثق اني لا اجد ادنى لذة في التسمم بالمسكرات وتدخين الحشيش وولوج الحانات والاخوار اناء الليل واطراف النهار ولا اشتهي الرقاد في فراش غير طاهر يطرقه كل من يريد ولا يروق في نظري التردد على مواخير الدعارة كما تفعل انت ومن أترفتهم النعمة من ابناء الذوات المتطرفين في المدنية

الحديثة ذوى الكياسة والذكاء المتوقد فنهاية ذلك اما الجنون واما المرض والفقر واما الضعف المتناهي العائق عن كل عمل يطلب من رجل . ثق اني لا اجد لذة فى هتك عرض خلسة على احتجاب اعين الرقباء ولا اشتهي اعمال الحيلة على افساد اخلاق نفس طاهرة فمثل هذه الأعمال لا ينفرني منها وازع الدين فقط بل ان نفسى تمجها وطباعى تأباها لمخالفتها الانسانية والذوق السليم . فضلا عن ان التمادي فيها يذهب بكل لذة وشهوة تعزى اليها لأنها تصبح امراً مألوفاً . واني لأعرف كثيراً من المنغمسين في الملاهي واللذات المنهمكين في اتباع الشهوات يعترفون انهم اصبحوا لا يشعرون بلذة في الحياة وقد علاهم السأم واستولت عليهم الكآبة يعتريهم الضجر والانفعال لأدنى شيء يعترض ميولهم ولكنهم في غوايتهم يعمهون ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم اليقين . طال بنا الحديث وصرفتنا المناظرة عن الالتفات الى الوقت واظن ان ما أتينا به اليوم كاف على ان نعود الى البحث مرة أخرى عندما تسمح لنا الظروف . فائذن لي الآن بالانصراف واعذرني اذ ألجأتني المناظرة لمخالفتك في جميع آرائك فهذا لا يمنعنى من احترام

افكارك بالرغم من تمسكي بالايمان الذي يشترك معي فيه السواد الاعظم من الناس عظيمهم وحقيرهم عالمهم وجاهلهم ونحن قانعون بما لدينا من الأدلة والبراهين على وجود الله اذ لم يقم للآن برهان صحيح ينفي وجوده وبعبارة أوضح أقول لك اني لست متعصبا بل اني مستعد أن أخضع لك في تغيير معتقدي ان امكنك ان تقيم برهاناً ناصعاً على صحة دعواك . لا كما فعلت الليلة من اطالة القول بلا جدوى ولا منتوج أكرر لك قولي اني ثابت على ايماني. فبرهن لي على فساد حسي وشعوري ببرهان يقبله العقل أصير ماديا مثلك

— قد سرني حديثك كثيراً . والآن أبوح لك بالحقيقة . انا لست ماديا . انما تظاهرت بذلك لأعجم عودك واقف على مقدار ثباتك على الايمان ولأتبين مما اذا كنت من اولئك الذين ينقادون انقياداً أعمى بلا نظر ولا استدلال ويتأثرون بالخزعبلات وتجوز عليهم المغالطة . فأعجبني منك ذكاؤك وفطنتك واؤكد لك اني مثلك مؤمن بالله :

حينئذ لاحظ الحاضرون أن هذه خديعة أخرى من صاحبنا أراد أن يستتربها كي لا يقر لي بالغلبة والظهور عليه

فأدعى ان ما قاله لم يكن الا من قبيل الخزعبلات . ولكن لم يضحك منه أحد الحاضرين حتى لا يزداد خجلا . اما انا فغاظني منه مراوغته واحتياله في الهرب بعد ما كان من صلفه وعلوه في تخجيلي وضحك الحاضرين عندما كان يأتي بشاذ الأمثلة . لم يرضني منه ان يشعر بالضعف ويخفيه فأزمعت ان اضايقه حتى يبدو ضعفه ولا يستطيع اخفاءه فقلت له

— لا ! لا ! أمؤمن انت ؟ لقد كان يخطر لي انك كذلك احياناً . لأن المادي الصميم لا بد ان يكون اكثر منك جدلا واشد شكيمة . كنت أفكر في ذلك كلما ظهر لي ان سفسطتك ومغالطاتك لم تكن من النوع الجيد

— كيف تقول ان . . . . ؟

— لا تحاول الدفاع عن نظرية ساقطة لا قوام لها الآن بعد اعترافك انك مؤمن . ان نظريتك سهلة التفنيد اما المغالطة الجيدة فهي التي يتجلى للعقل فسادها ويصعب تفنيدها

فلم يطق صبراً عن الكلام وقاطعني قائلا

— اسمح لي ياعزيزي . . . كل مغالطة سهلة التفنيد

— اتظن ؟

— بل انا واثق

— اذن ارجوك ان تبين لي كيف ؟ ولماذا ؟ كانت مغالطة حمار (بوريدون) فاسدة L'âne de Buridon

— لا اعرفها

— انها تتلخص فيما يأتي . يقول ان جاذبية الأشياء للانسان هي بنسبة حاجته اليها والمسافة التي تفصله عنها . فلو فرضنا انى جوعان فان قوة الجذب الى قطعة خبز قريبة مني اكثر منها الى قطعة بعيدة . واذا أخبرتني عن قطعة خبز جيد في حجرة قريبة مني وانا جوعان ايضاً فأني اشعر بجاذبية شديدة اليها اما اذا اخبرتني عن قطعة خبز في اليابان فلا أشعر في هذه الحالة بأدنى جاذبية اليها ويستنتج من ذلك انه اذا تساوت قوة الجذب في شيئين عند حيوان من جهتين متقابلتين وتوسط بينهما الحيوان تماما مثل ثابتاً في مكانه ويقول (بوريدون) اذا وضعنا على يمين حمار جائع مقداراً من التبن على مسافة ما فانه يجذب الحمار ليأكله فاذا أتينا بمقدار من التبن مكافيء للمقدار الاول أو من نوعه ووضعناه يسار الحمار على مسافة تساوي بعد التبن من الجهة اليمنى فان الجذب من الجهتين يكون متساويا عند الحمار

فلا يتحرك من مكانه

ويدعى بوريدون اننا لا نحصل على غير هذه النتيجة اذا امكننا اجراء هذه التجربة بالدقة

ومع اننا كلنا نعرف جيداً ونشعر بفساد دعواه . وان الحمار الجائع لا يتردد حينئذ في الذهاب الى احد الجهتين ليأكل مقدار التبن اولا ثم يذهب الى الجهة الاخرى فيأكل الثاني . ولكن كيف نستطيع تفنيد هذه المغالطة ؟

— ها ها ها ! اي صعوبة تتراءى لك في ذلك ؟

ان الامر هينٌ بسيط وما علينا الا ان نعيد هذه التجربة عشر مرات او مائة مرة والحمار في كل واحدة يبتدىء بأكل احد العدلين ويثني بالآخر وهو لا يعبأ بالكمّ ولا بالمسافة وهذا ما يثبت فساد هذه المغالطة

— اسمح لي أن أضحك مثلك من هذا الجواب . ان (بوريدون) ادهى مما تظن فانه يجيبك في هذه الحالة بان تجربتك لا تدل على بطلان دعواه بل على فساد تجربتك قائلا انك لم تضبط قياس بُعدي الكميتين من الحمار بالمليمتر ويكفي مليمتر واحد يزيد او ينقص في احدهما لتكون احدى

الكميتين اقرب الى الحمار من الأخرى . او يقول ان فساد تجربتك ربما جاء من ان الكميتين غير متساويتين في الحجم فيكون جذب الكبرى منهما اقوى من الصغرى او يقول ربما كانت احداهما اروح في انف الحمار فتختلف قوة الجذب فيهما فلا يكون في تجاربك ما يدل على فساد نظريته

ويمكنه ان يقول اذا كنت متحققا من تساوى المسافتين والكميتين ورائحتهما فهل انت متحقق ايضاً من ان عيني الحمار الذي تجري عليه التجربة متساويتان فى قوة النظر فلم ير احدى الكميتين اوضح او اكبر من الاخرى فتكون اقوى في جذبه اليها ؟؟ . .

اذا تحققت من كل ذلك بفرض امكانه فمن اين لك ان حاسة الشم متساوية في خيشومي الحمار فلم ترجح احداهما الأخرى فكانت سببا في تحركه الى الجهة التي استجود تنبها . وبالاختصار يقول (بوريدون) انه لو تيسر لنا اجراء التجربة بدقة تامة فلا يتحرك الحمار البتة

وبما اننا لا نستطيع استيفاء شروطه من كل الوجوه فسوف تظل نظريته صحيحة والذنب لنا لأننا غير اكفاء

لاجراء العملية كما يريد

فهلمَّ ان استطعت الى تفنيد هذه المغالطة بعد ان اوقفتك على اوجه الصعوبة فيها

قلت لك اننا لا نشعر بفسادها فقط بل انا واثقون من ذلك ولا قدره لنا على دحضها فهي ولا شك اقوى من مغالطتك في انكار وجود الآله معتمداً على صحة الحقائق العلمية

وكان الفيلسوف يسمع ويبتسم بتكاف ابتسامات تشف عما يتأجج بين جنبيه من الغيظ والكمد وكان الحاضرون يسمعون ولا ينبسون ببنت شفة ولكن الارتياح يبدو عليهم الا واحداً هو الشاب المسلم المتجلنز فكان كانه يمتعض من افكاري وقد اكون معذوراً اذ لم ارضه فأن ارضاء الجميع غاية لا تدرك . نهض صاحب البيت فنهضنا على اثره نريد الانصراف فاستبقانا ليقدم لنا شيئاً من المرطبات . وذهب يهيئه فاقترب مني لابس الطربوش وظننته يريد الاعتراض على شيء مما قلته او يوقفني على آرائه في الموضوع ولكنه قال

— ان الرطوبة منتشرة بكثرة في الجو هذا المساء

— نعم الرطوبة شديدة الليلة

— لا لذة في الرياضة البدنية ما دامت حال الجو كذلك

— نعم يلزم لتلك الرياضة الطقس البارد

— لا ارى موافقاً للرياضة احسن من بلاد الانكليز

ثم طفق يحدثني عن انواع الرياضة البدنية على انه لا يعرف منها الا لعب الاكر التي يتلقونها بالصولجان ذي الشبكة (التنس) ثم قال

— ان الوسيلة الوحيدة لسعادة المرء في الحياة هي التمتع بصحة جيدة فبدونها لا تكون للحياة قيمة . انظر الى رجل معتل المعدة فتراه لا يهنأ له عيش ولا يجد لذة في شيء فهو تعيس طول حياته .

فبسمت لقوله فتشجع على الاستمرار في الحديث وقال

— واحسن طريقة لحفظ الصحة هي الاعتناء بالرياضة البدنية والاصطبار عليها كما يفعل الانكليز . فان التنس من ألذ الالعاب وهو مقوى للبنية

وما زال بي يطيل الشرح والايضاح ليفهمني ان لا حياة بدون تنس ولا تنس بدون حياة ثم نظر اليّ نظرة من يكبر نفسه وقال

— يظهر انك تلعب التنس قليلاً

— نعم

— اما انا فأجيد لعبه لأني لعبته ثلاث سنين متوالية في انكلترا وهل تلعب التنس من زمن ؟

— كلا من عشر سنين فقط

والظاهر ان جوابي لم يرق لديه فتركني وذهبت امام نافذة استنشق الهواء فلحقني رجل كهل من المرافقين لنا فمسح بيده على كتفي فنظرت اليها فوجدتها محزنة وخلت ان في قدرة هذا الرجل ان يترك الماء من بين يديه جبراً ادكن لو غسلهما . قال لي

— احسنت اجدت ايها الشاب . (دي شيء جمال جمال آوى) لم اقدم لك التهنئة امام رب البيت خشية ان اجرح احساسه فهو العالم الذي لا يشق له غبار وما رأيته أفحم في غير هذا المجلس . فما اطول باعك في علم اللاهوت وانا الآخر ممن يشتغلون بهذا العلم ولكنك انت مبرز فيه فكم انا معجب وكم طربت بآرائك

فحدثتني نفسي ان الرجل يمدحني توطئه لأطراء نفسه

وهذا ما حصل فعلا فأنه ما لبث ان قال

— تراني الآن اصبحت شيخاً ولقد كان لي ابان شبابي مواقف مشهودة في المناظرات لم يستطع احد مباراتي فيها واليوم لا قدرة لي على الكلام والجدل مليا ولذا اكتفي بالاصغاء لمن يتناظرون واحيطك علماً انى شغوف بمطالعة الكتب الفلسفية لا اطيق تركها يوماً كاملا وربما عنّ لي يوماً ان اضع كتابا لا مثيل له في علم اللاهوت لان الالهيات فوق كل علم في الوجود فالاشتغال بها اولى من الاشتغال بالاديبات والتاريخ والرياضيات وغير ذلك وما حياة الانسان في الدنيا الا طريق الى الحياة الأبدية فكيف يقضيها دون ان يفكر في وجود الخالق وخلود الروح والتقرب من الله سبحانه وتعالى الذي أعيش بجواره في دار كرامته بعد هذه الحياة القصيرة . فلذلك لا ارى خيراً لي ان افكر في شيء غير الله ولا أدع هذه الحياة تنقضي عبثاً في الاشتغال بالامور الفانية

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

واستمر مدة يكلمني مبرهنا . على ذكائه ورجحان عقله

وصلاح مذهبه وما سوى ذلك فأمر تافه لا يعتدبه

لا شك اني كنت اسمع حديثه مبتسما وما زال يطري نفسه حتى قنع بأني احطت بكل ما اراد ان اعلمه منه ولكنه اراد ان يتحقق من موافقتي اياه فسألني

— ما رأيك فيما سمعت ؟

— اني اوافقك تمام الموافقة فرأيك هو الرأي ولا ينبغي للانسان ان يهتم بالاشتغال بشيء اكثر من اهتمامه بأمر آخرته

— او تفعل انت ذلك من مدة ؟

— نعم

فسر صاحبي جداً من جوابي وبالغ في مدحي لاتجاهي نحو الآخرة من مدة قصيرة وتركني افكر في حالته وما عساني ان اكيله له من عبارات المدح وما يستحقه من الثناء لاشتغاله بأمر الآخرة ستين عاماً

يا الهي لا يخلو امرؤ من عيب ولكن قلما يرى الانسان عيب نفسه فهو دائما يرى القذى في عين اخيه ولا يراه في عينه

لم يكد يفارقني هذا الرجل حتى اقبل عليّ رجل آخر (كان كأنه يسمع ما دار بيننا) فأشار اليه قائلا

— لقد ضايقك بلا ريب هذا الرجل بثرثرته في نظريات الدين وما يتعلق بامور الآخرة بعبارات لا يتغير لفظها كانما حفظها عن ظهر قلب ولا ينفك يكررها كلما سنحت له الفرصة في مجلس ولكن لا باس بالرجل فهو خفيف الروح مسلّ

— نعم هو خفيف الروح

وسرعان ما سالني صاحبنا الجديد قائلا

— ما رأيك في الحرب ؟

— ؟ . . . . ؟ . . . .

— اظن ان ما لدينا من الاخبار عنها غير كافي . . . .

— يجوز . . . .

واستمر يحدثني عن ولوعه بمطالعة الجرائد الافرنجية والوقوف على الاخبار ومتابعة السياسة ويوضح لي ضرورة الاشتغال بها ومذهبه في استقاء الاخبار والاستنتاج مما يقرؤه وان من يتصفح الجرائد اليومية ويتابع ما جريات السياسة فلا حظ له من الحياة . . . . ولما رأى مني عدم مجاراته في ميدان السياسة وانى لم اناقشه في شيء مما يقول رحل عني بسلام

وغاية ما كان يرمي اليه انه اراد ان يفهمني ان من لم يهتم بالسياسة اهتمامه بها فليس برجل مفكر وانه هو من الذين يعرفون كيف يستفيدون من قراءة الجرائد بعد ان انتقد العالم الألهي مر الأنتقاد ورماه بالعباوة

ومن حسن الحظ ان العالم لا يخلو من مثل هؤلاء الناس الذين يضحكون ويسخرون من غيرهم ويفوتهم انهم موضع ضحك الغير وسخريتهم ولولا امثال هؤلاء لكانت العالم ساذج ممل

بعد ذلك استاذنت رب البيت وعدت الى داري حيث وجدت اخواتي الصغيرات يحطن بكبراهن التي كانت تقرأ عليهن قصة قصيرة ومؤداها ان عملياقاً نزل بارض اقزام واراد البطش بهم ولكنهم عرفوا كيف يتقون اذاه ويخلصون منه بأن ملقوه وداهنوه واظهروا له منتهى الخضوع والطاعة فاغترف بفعلهم واعتمد على قوته ونام آمناً ملء عينيه فتسلقوا جسمه العظيم حتى وصلوا الى عنقه وذبحوه

قهقهت اخواتي لسماع تلك القصة طويلا حتى استلقى بعضهن فأحدث ذلك في نفسي سروراً عظيما ولذة لم اجدهما في سماع اصحابنا الذين جمعني واياهم دار الفيلسوف

تم الجزء الاول ويليه الثاني قريباً وأوله « الانسان »

تنبيه = وقع بعض خطأ مطبعي بسيط نشأ عنه تحريف لا يعزب عن فطنة القارئ الاهتداء الى صوابه ولكنه قليل فلم نرَ داعياً لوضع صحيفة للخطأ والصواب . انما الذي نامل ملاحظته الانحراف الذي طرأ على شكل الارض بفرض « سوس » فليلاحظ ان محوره مائل عن الخط العمودي بزاوية قدرها ٢٣ درجة

الانسان

اليوم الأحد هذا يوم البطالة فأين اذهب وقد غصت الطرق والمتنزهات بالعمال والموظفين الذين ينتظرونه بعد شغل طول الأسبوع ليقضوه فى الرياضة وترويح النفس واجتلاء دواعى السرور وقد لبسوا لذلك الجديد والمدخر لمثل هذا اليوم واكثرهم لم يعتد شد رباط الرقبه ولا لبس الياقات المرتفعة المنشّاة فتراهم ضيقي الصدر يتنفسون الصعداء يكادون يختنقون من ضغط الملابس على رئاتهم وهم يحاذرون لدى جلوسهم ومشيهم ألاّ تتلوث ثيابهم بشيء من التراب ونحوه . يراهم الانسان في هذا اليوم قد انتشروا كالجراد إبان هجومه فلا يخلو منهم طريق ولا حديقة عمومية ولا ملهى ولا ملعب حتى ليراهم غير المتبرجين قد اخذوا عليهم شاطئ البحر الذي اعتادوا ان يستنشقوا الهواء فيه بعيداً عن الضوضاء والمزاحمة فلا يعرفو كيف يسرّون انفسهم ولا يتركون صفو سواهم دون ان يكدروه .

عجيب ان اشعر بمثل هذا الضجر من مزاحمة هؤلاء ومن أين لي هذا الشعور ؟ مَن أنا ومَن هؤلاء . لعل ذلك علق بنفسي لكثرة ما أسمع من المتنطسين من ابناء الذوات والأشراف الذين لا يرون وجوداً لغيرهم ولا يستحق سواهم في نظرهم ان يتمتع بزينة الحياة والطيبات من الرزق ولا أن يزاحمهم في شيء من كل ما من شأنه ان يروّح النفس من عناء الشغل ويزيل عنها القلق والانقباض ؟ . . ان صح ذلك ولا أخاله الا صحيحاً فهو نتيجة معاشرة أولئك الذين فتنتهم الأبهة والترف واكبار الناس لهم فلا يطيب لهم الحديث الا عن ملابسهم ومراكبهم وخدمهم وحشمهم وحظوظهم النفسية ولذاتهم الخصوصية فيربؤون بأنفسهم ان يخالطوا الجمهور في مجتمعاتهم ايام الأعياد والعطلة العمومية .

لله الأمر من قبل ومن بعد ما دامت العدوى قد استأصلت من نفسي فاصبحت على مذهب اولئك العلية من القوم .

قصدت صديقاً لي اعرف انه يظل يوم الاحد في داره اضطراراً لاستقبال اصدقائه الذين اعتادوا زيارته في هذا اليوم

لعلي أصادفه على انفراد وقد تخلف الاصدقاء عن زيارته فأخرج معه للتريض لانه ممن لا يتهيبون الزحام ولا يتحاشون مخالطة العامة

خاب فألي اذ قصدت داره ودخلت حجرة الأستقبال دون ان أخبره بقدومي فوجدتها مكتظة بالرفاق والأخوان ممن اعرفهم الا اثنين لم ارهما قبل هذا اليوم

ووجدت سالماً (هو احد اصدقائنا الظرفاء) يتكلم مع احد الاثنين عن ايام المدرسة بسويسرا ويصف له حياته فيها فيقول :

— الحق اني آسف على ذهاب تلك الايام الهنيئة التي قضيتها بالمدرسة وقد فرحت لما سمعت انك ذاهب اليها وستسر من كل شيء هناك . ان الجد رائد القوم في عملهم بيد أنهم يخرجون غالباً للتنزه ومشاهدة جمال الطبيعة فوق الجبال المنتشرة في أرجائها التي قلّ ان يحاكيها جبال أخرى بهجة ورواء لما استأثرت به من بديع المناظر ومختلف الألوان والأعشاب وبستان المدرسة فسيح جداً منظم للغاية

— ما رأيك في معلميها ؟

— انهم على معرفة ودراية تامة بما يُدرّسون ذوو اخلاق مرضية الا أستاذ الفلسفة فأنه كالمجنون وكثيراً ما يحادث نفسه بصوت يسمع

— وما رأيك في معلم الرياضة ؟

— انه معلم كفء ضليع في الرياضيات غزير المادة سهل الشرح وواضح الاسلوب والبيان هادىء الطبع لا ينفعل ولا يتهور لهفوات التلاميذ ولا يهتم ولا يرتبك بأي زائر عظيما كان او حقيراً فيستوي عنده ناظر المعارف وناظر المدرسة

وكذلك معلم الانكليزية ماهر في حرفته لا تخلو حصة يؤديها من جديد طريف

اما معلم الترجمة فهو شاب خفيف الروح جداً كثير الحركة والنشاط وقد سمعت احد تلاميذه وصفه فى معرض المجون قائلا (انه في تحركه وانتقاله اثناء الدرس يشبه طفلاً صغيراً قد حصر بالبول وتعسر عليه خلع سراويله فهو لذلك لا ينفك يرفع رجلا ويضع اخرى على الارض بسرعة واضطراب) والحق ان الرجل عصبي المزاج ولكنه شغول حتى انه لينساب بالشرح قبل ان يدخل حجرة التدريس بصوت

جهوري مريع وحدة توقظ من عساه ان تاخذه سِنة . ولا يستقر في موضع من الحجرة طول الدرس . وبتلك الكيفية يملي الدروس وهو مع ذلك لطيف المعاملة لتلاميذه فلا يشتم ولا يوبخ بالفاظ جارحة كما يفعل بعض المعلمين كما أنه كثير البشاشة والمباسطة . ومن عادته ان ينهجي الالفاظ السهلة ويترك الصعبة . واذكر انه جاءنا يوماً بدل استاذ غائب فقص علينا حكاية بأسلوب حسن مروح جعلنا نستغرق في الضحك ومؤداها انه تعرف في (بار) أمس بشاب اسمه شكيب فقال شكيب شين كاف ى ب وان شكيبا سخر منه بانه يعبد الله ويحرص على تأدية الصلاة المفروضة في وقتها . . . . معنى مفروضة يا افنديه انه يتحتم فعلها وتركها معصية كبيرة تدخل النار مفروضة ميم . ف. راء . واو . ضاد . هاء . . . . يعنى واجبة

واستمر حتى أتم حكايته بهذا الاسلوب ومع ذلك أشهد له بضمير خالص أنه أحسن ما صادفت من معلمي الترجمة واحرصهم على نجاح تلاميذه

— أشكرك على اهدائى هذه المعلومات وارجو ان تحدثنى بما تعلم من معلم اللغة الفرنسية فانها اللغة الاساسية وامر هذا يهمنى

اكثر من سواه

— نعم أحدثك عنه بما تطمئن له نفسك ويزيد في جذلك وابتهاجك . ان الرجل معلم ماهر نادر المثال في حرفته وطريقة تدريسه . وهو فوق ذلك ناثر شاعر كاتب عبقري تشعر بطيب فؤاده وحسن طويته وسجاياه وان لم تره يبسم ابداً . يمتاز عن رصفائه بثلاثة اساريرٍ رأسية بين حاجبيه ونظارته التي لا يرفعها عن عينيه . وما رأيته يبسم مدة اقامتي بالمدرسة الا مرة واحدة . وذلك اني رويت له ملاحظة سمعتها من معلم الانكليزية وهي : لماذا نسمي الاسد ملك الحيوانات مع انه ليس أقواها ولا اضخمها ولا اجرأها . ان ألاجدر بهذا اللقب الجاموس الوحشي الامريكي لانه يناطح القطارات ظانا انها حيوانات مضادة له . . . فتبسم الاستاذ من قولي وجاء رفاقي بعد الدرس يهنئونني بهذه النتيجة

— اذا كان الأمر كما تذكر فلماذا غادرت المدرسة قبل الحصول على الشهادة النهائية ؟

— لأسباب صحية وبالاحري لان ناظر المدرسة أوجد لي صعوبات وعراقيل ضايقتني وسئمت المدرسة من اجلها

— وما الداعي لمضايقته اياك؟

— انه كان لا يرتاح لرؤيتي ومن العجيب ان يتنازل الناظر من رفعته فيضع نفسه في مستوى التلاميذ ويضايقهم

— مهما كان . . . فلا بد لمضايقته اياك من سبب

— ربما كان ذلك لاني لا أسلم عليه بالشكل الذي يرضيه ويحتمه على التلاميذ ويراه من الواجب نحو شخصه الموقر

لا يسمح لتلميذ أوقف بين يديه ان يقابل أمره أيّاً كان بغير الطاعة العمياء والاذعان . فلا أدري ان كان له أن يعتبر نفسه كقيصر فهل له ان يقابل تلاميذه كعسكر

— ارى ان لا بأس باتباع النظام

— يظهر انك لا تعرف الرجل فتتصور خلقه كما كنت أتصور أول الأمر . فاسمع قصة توضح لك شيئاً من خلقه . ارسل الي يوماً أحد ضباط المدرسة يدعوني اليه فقلت في نفسي لماذا يدعوني الناظر وليس ثمة سبب ولكني امتثلت الأمر وذهبت الى حجرته فوجدت معلم الرياضة البدنية على باب الحجرة فسألني

— هل أرسل اليك حضرة الناظر؟

— نعم أخبرني الضابط بذلك

اذاً اخلع معطفك (باطو)

— ولِمَ ؟ .. اني مريض ... والجو بارد

— لا بأس .... ستلبسه بعد خروجك

— حاضر

خلعت معطفي فدق المعلم على الباب ثلاثا بنشاط ثم دخلنا فلما اغلق الباب قال لي ما معناه باصطلاح المدارس هنا : دور... صفدن جاريا دن سرعتلى مارش ... بير... هلك ... بير ... هلك ... بير ... هلك

الى ان وصلنا الى امام مكتب الناظر فقال معلم الرياضة البدنية بصوته الرخيم ... دور ... سلام آل ... بير ... هلك

دهشت من هذه الرسميات لدرجة فقدت معها صوابي أو كدت . فكنت أقابل تلك الاوامر بالطاعة دون تعقل

وقفت امام الناظر مدة وهو مستمر فى الكتابة لم يلتفت الي فلما فرغ قال

— هاه ... انت سالم ؟

— نعم ياحضرة الناظر

— يظهر انك تفوق الآخرين فى لعب التنس . سنعمل هنا

مضمار فخر كشفاً بأسماء التلاميذ الذين يرغبون في اللعب وسلمه للضابط

— ذلك يتيسر لحضرة الضابط بسهولة واظن ان اكثر التلاميذ لا يرغبون في اللعب لما يكلفهم من شراء صوالج واحذية خاصة والارض ضيقة رديئة

— هذا لا يهمك فافعل كما قلت لك واخرج الآن» هنا قال لي معلم الجمباز سلام ال . . . بير . . . هك . . . صغدن جاريه دن. سرعتلي مارش . . . بير . . . هك الخ . فعدت كما بدأت اتباعاً للرسميات

فاستغرب الحاضرون قول سالم وسأله بعضهم أهكذا تعاملون هناك أو انت مبالغ ؟ فأجاب سالم صدقوا ما أقول وسلوا غيري ممن كان هناك ولكن لا تشاءما كثيراً فربما تكونون اسعد حظاً واستمر قائلا

— بعد خروجنا سألني معلم الجمباز ما منعك ان تسلم على الناظر بنشاط وقوة وسمت معتدل ؟ فقلت له

— اني آسف جداً اذ لم اكن عسكرياً . . . لا جيد تأدية السلام القانوي بمثل هذه الحركات وارجو ألا تطالبني بما

طالبتني به اليوم ان دعيت لزيارة الناظر مرة اخرى . فما اطعتك هذه المرة الا بعد ان فقدت صوابي حين فاجأتني بندائك النظامي »

واتفق اني كنت وقتئذ منحرف الصحة فالتمست من احد اصدقائي بالفرقة ان يحرر الكشف المطلوب ونفضت يدي من تلك المأمورية

مضت بضعة ايام تمّ فيها اعداد ما يلزم للعب التنس وعرف لاعبوه واول يوم دار فيه اللعب جاءني ضابط المدرسة وقال: صدر امر حضرة الناظر الساعة بحرمانك من لعب التنس حتى يصدر أمر آخر . فقلت له

— اشكر حضرة الناظر من صميم قلبي لأن صحتي الآن لا تسمح لي باللعب . وهاك دعوتان وصلتان اليوم من عائلتين تدعوان الى اللعب فأضطررت ان ارفضها للسبب نفسه . . . اشكره لذلك ولانه جنبني اللعب في مضمار غير صالح مع رفاق لاعهد لهم به .

ولا علم لي ان كان الضابط نقل الى الناظر قولي حرفياً او بتصرف . من ذلك الحين اخذت اشعر بمضايقة جدية . ظن

حضرة الناظر انه يؤلمني بحرماني من التنس ويعلم الله انني لو كنت اذاك كامل الصحة لأربحت كل الارتياح لهذا المنع واي لاعب مدرب تتوق نفسه للعب في مضمار كحوش الدجاج دون ان ابالغ . وصية ليسوا اكفاء ولكني لما رايته يهتم بتافه الامور الشخصية عزمت ان اجاريه فلا اتساهل في هضم شخصيتي دون ان يأخذني بشيء يتذرع به لتوقيع العقاب عليّ . انه ما فتيء الناظر من ذلك الحين يدعوني الى حجرته المرة تلو المرة لاسباب لا قيمة لها نظاماً او خلقاً وكنت امتثل امر معلم الجمباز كل مرة ولكني اسلم على الناظر كما اسلم على كبير اسرة راقية فلا يلبث ان تظهر عليه شارات الامتعاض والحنق وكلما رآني واقفاً امامه كالمعتاد لا كمسكري كان ذلك يهيج من اعصابه ولا يجد مندوحة الى عقاب يذهب غيظه ويثلج صدره

— ولكن لِمَ برحت المدرسة ؟

— قلت ان صحتي انحرفت واعتراني مرض في المعدة كان يلزمني الفراش في كثير من الايام . واشار عليّ الاطباء بعلاج لا يتفق الا مع اكل خاص حددوا انواعه وصنوفه وعرض

ذلك على الناظر فأبلغنا انه مستحيل بالمدرسة وانه لا يسمح لي بالخروج لتناول طعام الغداء خارجا. فقدّم اليه والدي تقارير الاطباء القائلة بوجوب هذا العلاج طالباً صنع الطعام المناسب لسير مرضى بالمدرسة على نفقاتنا فرفض. فتوسل اليه والدي ببعض اخصائه من ذوي الحيثية وعلية القوم فرفض ايضاً ولما يئسنا من اجابة طلبنا كتب اليه والوالد يستغرب من هذه المعاملة القاسية مبيناً له ان تشدده في الرفض ينتهي لاحد امرين: فأما ان يقتل المرض الطالب اذا لم يسمح له بالعلاج مع مواظبته على المدرسة واما انه ينقطع عنها فيضيع مستقبله. كل ذلك لم يكن ليؤثر على عواطف الناظر ولم يرعو بتوجع والد الطالب الذي لا يؤدي له سلاماً عسكريا كلما رآه

ولكن والدي لم تفارقه الرحمة فما فتيء يضج بالشكوى لاصدقاء الناظر وذوي مجالسه الذين يعدّون على الاصابع وكأنه شعر اخيراً بما يلحقه من شدة اللوم فسمح لي بالخروج وقت الظهر على ان اعود قبل ابتداء الدروس بنصف ساعة. منة كبرى تأسر القلوب وجميل لا ينسى على مدى الحياة لو انه دام لي التمتع بهذه الاريحية طويلا فبعد يومين من امره الكريم

عاودني المرض في اليوم الثالث لأن العلاج لم يؤثر في سير المرض بهذه السرعة فماذا فعل حضرة الناظر ؟ انه فاجأ والدي بخطاب جاف خشن لا يزال يحتفظ به كتميمة وفيه يقول انه نادم او آسف لمنحي التسهيلات لخروجي ظهراً وانها لم تفد في مواظبتي. وطلب من والدي ان يرسل له شهادة من طبيب في بحر ثلاثة ايام يحدد فيها الطبيب عدد الايام اللازمة لعلاجي خارج المدرسة بحيث لا امرض بعدها وان يتعهد والدي بتنفيذها وهو يتكرم بمنح اجازة عن تلك المدة .

يا آلهي على اي قاعدة بنا حضرة الناظر طلبه وهل يعزب عن متعلم ان مرض المعدة لا يزول دفعة واحدة او في ايام قلائل وأي طبيب يجرأ على تحديد مدة ما لزوال مرض مزمن ؟ والحق اني الآن متحير في فهم معنى استغرابه من عدم شفائي في يومين ! ! !

لما تبين لوالدي حسن نية الناظر نحوي رد عليه رداً جميلا وشكره على عنايته بي وما منحني من التسهيلات حرصا على فائدتي وانه لا يرى مكافئا على صنع جميله ويرجوه في قبول استقالتي مراعاة لصحتي . ولذا تراني الآن بينكم هنا

— شيء هلاك . . . ما هذه المعاملة ؟

— هذا ما كان . . . ربما كنت اعامل بغيرها من ناظر سواه اما هو فهكذا خلق

— الغريب من امرك انك غير حاقد عليه وانت تراه آذاك في حياتك وأضر بمستقبلك

— ولِمَ احقد عليه ؟

وهاك احمد الجالس على يمينك صادف من ناظره ما يحاكي قصتي وهو لا يحقد على ناظره ولا يحمل له بين جنبيه ضغناً

— ليت شعري ما الحكمة في قسوة جميع النظار ؟

— جميع النظار ؟ لا تبالغ فالامر بالعكس لانهم ينتخبون من أسر كريمة وبعد ان يتموا التعليم العالي ويشتهروا بقوة الذكاء وكرم الاخلاق وقلما تصادف منهم معاملة كالذي سمعت

— يا سالم انك لا تستطيع ان تخالفني وتقول ان ناظرك . . . .

— كلا ! ولو كان كما تقول لما كان داعيا لحقدي عليه لأني لا أتوقع ان تكون سلامة الذوق سجية في الناس اجمع والا فاي فارق بين المهذب وغيره اذا تساوى الناس . فضلا عن ان مزية الذوق لا تظهر فتعرف الا اذا وجد أناس لاذوق لهم

وكل ما أقوله ان الناظر رجل طيب لانه مجد في عمله ولم يفعل الا ما ظنه من واجباته

— كفى الرجل شتما فان من مدَحَ انسانا بما ليس فيه فقد هجاه هجواً

— لا يا عزيزي عبد الرحيم لم أقصد شيئاً من ذلك وانما لحدة ذهنك تتخيل السوء حيث لا سوء وأؤكد لك انه ليس في نفسي الآن للناظر أي ضغينه . نعم كنت ناقماً عليه ابان اضطهاده لى ولو كنت شاعراً اذ ذاك لنظمت عواطفي في قطعت عنوانها « ناظر انتيكه »

ولو كنت مصوراً لاحضرت لوحاً طوله متر وربع وعرضه ثلث متر ولصورته فيه بمزيج من محلول الالوان المعتمة مجتهداً ان تبدو على وجهه ملامح اللطف والجمال وفي يده هراوة او (بلطه) يهش بها على كبار تلاميذه ولكتبت فوق الرسم بالخط العريض (مجلس تاديب في مدرسة عاليه) وتحت الرسم (الناظر الرقيق) غير اني لم أكن بشاعر ولا راسم فظللت حزيناً أفكر في سوء حظي لظروف وضعتنى حيث كنت. ولم تطل لى تلك الخواطر المزعجة حتى تلاشت ومضيتُ في

طريق تبسم لي الحياة وأبسم لها كما تراني اليوم وكلما ذكرت ذلك العهد ضحكت من تلك الظروف وعذرت الناظر الذي لم يكن في امكانه أن يعمل غير ما عمل . فلا تحاول يا عزيزي ان تكلف الناس بما ليس في طباعهم ولا في قدرتهم والا كنت كمن يطلب المستحيل

وأكرر القول الآن ان لا داعي لاستيائي منه بل انا معجب ببعض خصال فيه

— معجب ببعض خصال فيه ؟ ؟ ها ! ها ! ها !

ما مثال ذلك ؟

— كل من يعرفونه يقولون ان فيه كبرياء لانفراده بنفسه فلا يعاشر احداً كانه يعيش في جزيرة منعزلة عن العالم ولكنهم مخطئون . فليس الرجل بمتكبر على ما أظن وليس في عزلته دليل على الكبرياء فقد يكون الذنب للناس لا له وربما كانوا هم الذين ينفرون من معاشرته وهذا ما يغير وجه النظرية بالكلية فاذا ظهر من معاملته شيء من الاحتقار لفئة غير قليلة من الناس يمنحهم المجتمع بعض الاعتبار فالحق في جانبه على ما أرى واذا وجدته ثقيل الظل على نفسك فلا بد ان تجدني مثله لاني

لست ممن يعاشرون كل الناس وعلى الاخص ابناء الباشوات والموسرين المتنفخين غروراً الذين يمشون في الارض مرحا شامخي الانوف بارزي البطون كفحول المصارعين . يحسبون انفسهم الاعلين لامتلاء جيوبهم بالقروش أو لأنهم يرتدون انيق الملابس قد خاطها امهر خياط في البلد ولا يفتحون افواههم الا ليسمعوك كلاما سخيفا كأن يفتخروا بقدرتهم على تجرع خمسة عشر كأسا من الويسكي دون ان يسكروا واشباه ذلك فبأى حديث تتكلم مع هؤلاء . اني لأفضل الحديث مع غلام في مطعم أو حانوت تجار أو قصاب فقد يفيدني حديثهم أكثر من هؤلاء لأنهم يتقنون مهنهم التي لا أعرف منها شيئا .

فلا تأخذ يا عبدالرحيم على ذلك الرجل تجنبه معاشرة الناس بل الواجب أن نلتمس له عذراً

— قد يكون له عذر في تجنب معاشرة الناس ولكني لا أرى له عذراً فيما عاملك به

— أما أنا فاعذره لان الانسان غير مطلق الحرية فيما يعمل

وكان بين الموجودين شاب يتحادث معهم واحيانا ينصت الى ما نتحدث به فقال لي بصوت المغيظ

— أ إذا لطمتك تظل ساكتاً لاني لطمتك مرغماً لا باختياري ؟

— هذا لا يحتاج الى ايضاح فأنك ان فعلت معي ذلك من غير ما سبب حسبتك مجنوناً فاقداً لقواك العقلية

ثم أملت رأسي الى ابن خالي أسأله عن هذا الشاب الجرىء المفاجىء . فافهمني انه ابن باشا من اغنياء الصعيد ذوى الثروة الطائلة وهو مدعٍ مغرور واني اذا سكت عنه تمادى في غروره ورسخ في ذهنه ان لا احد يحاكيه ذكاء وعلما وكأني بابن خالي وقد قصد بذلك ان يثير في نفسي الانفعال فانبري لمناظرته فيتلهى هو والحاضرون بما يكون بيننا

ولما كان الحديث دائراً حول الحرية والتقييد وبعبارة اخرى حول الخيرة والارادة البشرية جاريت ابن خالي فيما قصد وقلت لذلك المدعي

— تقول انك حر فيما تعمل وأقول ان اعمالك كلها محددة مقيدة

— هذه مضحكات المتدينين لعلك ممن يقول بالقضاء والقدر

— لا دخل للدين والمتدينين هنا وانما أقول لك انك لست مالكا لاعمالك أي لست مطلق الحرية في حركاتك وسكناتك

— كيف ذلك ؟ ان أمرك لغريب ! !

أ ترى اني لا استطيع ان انهض من مكاني فاخرج ثم اعود .

— يا حضرة البك . اراك تخلط بين انواع الحرية . لنفهم ذلك اولا

فالحرية المدنية السياسية عبارة عن الحق المخول لك بان تعمل في دائرة حددها لك المشرعون فانت حر مثلا في ان تنطلق حيث تريد ولكن السجين ليس له ذلك

ثم الحرية الفطرية وهي القدرة على الحركة كما تشتهي والمفلوج لا يستطيع ان يفعل ذلك

ولكننا الساعة لسنا في صدد هذه الحرية بل في حرية الارادة اي الحرية المعنوية

اننا نزمع القيام بعمل ثم نعمله وكأننا احرار في ذلك فهل نحن احرار حقيقة نعمل بمحض ارادتنا واننا نختبر ما نعتقده خيراً لنا قادرين على تنفيذه ؟

هبني ثقيلا على روحك الخفيفة وتود لو تستطيع ان تصفني من غير تردد . ولكنك قبل ان ترفع يدك تنظر اليّ

فتراني قادراً ان أكافئك على صفعتك باربع صفعات محكمات على قفاك وخمس لطمات على وجهك فما هي الا نبأة حتى تثنى عن عزمك لان الخوف وضعفك الجسماني منعاك ان تنفذ ارادتك فضلا عن اسباب اخرى . وبالعكس لو كنت ضعيفاً لما احجمت عن لطمي وأنت تظن انك تفعل ذلك بمحض ارادتك والحقيقة ما مكنك من صفعي الا ضعفي ان لم يكن ثمة مانع آخر

نحن لا نأتي عملا الا اذا حملنا عليه اسباب مجهولة ولكي يكون الانسان حراً بمعنى الكلمة يجب ألا يكون ما ياتيه في الحاضر مؤسسا على الماضي . وهذا يستحيل

وازيد ان الانسان الذى تسميه حراً أي الذى لا ينوى عملا بالمرة والذي لا تدفعه قوة على عمل شيء دون الآخر ولا يميل به داع الى جهة دون الاخرى ليس حراً ايضا لانه يظل جامداً لعدم ما يسوقه الى العمل فمن ذلك يتضح لك ان حريتك لا عمل لها وان ما تسميه حرية ما هو الا نوع من التقييد . . . . . ويزيد اعتقادنا في حريتنا حينما ندرك النسبة الدقيقة والرابطة الوثيقة بين اعمالنا واخلاقنا من جهة وبين

اجسامنا من جهة اخرى ويفوتنا ان نلاحظ ما في ذلك من منافاة الحرية الحقيقية

— ليس كلامك بواضح تماما ولم تات بما ينفي وجود الحيرة اى الحرية نفياً جازماً

— على رسلك . تيقظ الى ما اقول

ان الاعتراضات الواردة على نفي وجود الحرية اما ان تكون ناشئة من البحث فيما وراء المادة اي من الوجهة الدينية واما ان تكون من الوجهة العلمية والبسيكولوجيه . لندع الان الوجهة الدينية جانبا لقيامها على مسألة القضاء والقدر التي يظهر انك لا تعتد بها لما بدا لي منك من احتقارك اللاهوتية وضحكك حينما قلت آنفاً اننا لسنا احراراً ظاناً اني ساجعل محور كلامي القضاء والقدر . ولنتكلم على الاعتراضات التي يوردها الفلاسفة العصريين والتي اساسها العلم لا غير والتى تعجبك دون سواها . لتعرف انك لا من هؤلاء ولا من هؤلاء

ان التقييد الطبيعي Déterminisme physique ديترمينزم فيزيك (واظنك قرأت شيئاً فيه او سمعته) مبني على المبدأين الآتيين :—

الاول — كل تغيير يطرأ على جسم من الاجسام لا يمكن ان يكون له الا سبب طبيعي يعنى ان تأثير روح على جسم وتأثير شعور او حس على حركة غير معقول بالمرة لعدم امكان توقعه قبل حصوله او تحديده (اى ان حدوثه لم يكن منتظراً ولا مقداره معلوماً

الثاني مبدا استحالة انعدام القوة أبداً (فالناموس الطبيعى في هذه الحياة ان الاشياء تزول شكلا ولا تنعدم جوهراً عند بعض الماديين) (١) فلا يضيع شيء في هذا الوجود ولا يستجد شيء وما يفقد ظاهراً من الحرارة والضوء والكهرباء مثلا يكون قد تحول الى عمل عملناه

فاذا كان لارادة الانسان القدرة التي تنسبها لها بحيث لا يستطيع ان يحور بها احساسه ويغير بها اعماله فقط بل يستطيع بها ان يتسيطر على جسمه والاجسام المحيطة به . فاذا تأتى للص ان يغير طبعه بمحض ارادته ويبدله بطبع آخر يمنعه عن السرقة واذا تسنى لذى المزاج العصبى ان يبطل فزة الغضب ويستعيض عنها السكينة والحلم واذا كان السكير المدمن والمدخن الذي

(١) هذا الرأي ضعيف وتقدمت مناقشة في الجزء الاول

قضى معظم عمره يدخن بكثرة يستطيعان الانقطاع عن السكر والتدخين دفعة واحدة . لكانت الارادة هي التي توجد القوة وتستفز الحركة . وللزم ان يسوى هذا المبدأ بما ينطبق على ذلك

والقائلون بهذا المبدأ يرون ان اعمال الناس نتائج طباعهم وان طباعهم نتائج جبلاتهم (امزجتهم) وتركيب اجسامهم والمؤثرات الاخرى

تصور لصاً في حداثته كأن يكون في العشرين من عمره مثلا ولد من ابوين سكيرين وعاش في وسط كله لصوص فهل ينتظر من مثله ألا يسرق وهو لا يخشى الله ولا القانون ولم ينل قسطاً ما من التهذيب فلا خلاق له من شعور حي ولا ذمة تجرد من كل خلق كريم وفضيلة تدله ان السرقة امر منكر فاذا سرق فهو يسرق عادة مسروراً مرتاح الضمير لما يعمل ولا يتغير بقول الناس له سارق فهو في الحقيقة ليس بحر واي انسان نشأ نشأته منذ نعومة اظفاره فلا بد ان يكون مثله ولا يمكننا ان نتخذ من معاقبة القانون لمثل هذا اللص دليلا على حريته او ان القانون يعتبره حراً مطلق التصرف في اعماله فان الشارع يعرف جيداً ان ذلك اللص المسكين لم يرتكب جرمه

الا بدافع طبيعي وانه ليس فى وسعه ان يعمل خلاف ذلك واذا حكم عليه بالسجن فذلك لابعاده عن المجتمع الذي اصبح ضاراً به وخطراً عليه وبمثل ذلك يعامل القاتل وهما في الحقيقة مريضا القوى العقلية

هل نحقد على مريض لكراهة انفاسه وقيئه وما يكلفنا تمريضه من العناء الممل (المقرف)

واذا كنا لا نتقزز من ذلك فهذه الشفقة التي تتولد في قلوبنا طبعاً لضعف الانسان الجسماني اشعر بمثلها ولا ريب لضعف الانسان العقلي فكلاهما جدير بالرحمة لنبوغهما من اصل واحد ولا فرق بينهما عندى

الى متى يقيمون حداً فاصلا بين امراض الجسم التى لاتثريب على ذويها والامراض الروحية التي يوصمون المصابين بها وفي اى نقطة تنتهى هذه وتبتدى تلك ؟ ألا ترى ان ذلك حد وهمي لا وجود له ؟ وهل فاتك أيها النبيه ان الروح يعبث بها قيراط من خمر أو حبة من أفيون ؟ فشمة من البنج او نظرة من منوم مغناطيسي تجعلنا لا نستطيع ان نتكلم . بل لا يمكننا ان نمسك عن الضحك او البكاء لدى

ما يوجبه أحدهما . فاذا كنت لا تستطيع ان تكون كما تشتهي فرحا أو حزيناً فكيف تستطيع بنوع أخص ان تكون صالحاً أو طالحاً قوياً او ضعيفاً كما تشاء . (الا ان الروح والجسم سيان في قبول المرض بل الجسم اقوى في تحمل الامراض عن الروح) . فالرجل اما ان يكون له نفس طيبة أو نفس خبيثة كما يكون له صحة جيدة أو صحة ضئيلة ولكنكم لا تقرون بذلك مهما اتضح الامر وقام الدليل . فلا بد لكم دائما من مجرم تقدمونه للقصاص . فكلما وقع حادث من احد اسرعتم رافعين الايدى للضرب لا لطلب الغفران

فاعتقاد البعض في حريتهم اليوم كاعتقاد بعضهم في الماضى ان الارض ثابتة في متوسط الكون

هنا قال شريف بعد ان ظل تلك المدة صامتاً

— ارجع بنا الى مسألة الارادة التي كنت تتكلم عنها الساعة وتدعى انها لا تتفق مع القوة

— عفواً . انما كنت اقص رأي بعض الفلاسفة المصريين أما انا فلم أبدِ رأيي الخاص فيما قلت ولا يهمك الآن ان . . .

— عظيم . عظيم . سلمت انه ليس في طاقة انسان مهما كانت

ارادته ان يزيد او ينقص في القوة بأن توجد ارادته حركة جديدة او تعدم حركة موجودة أفلا تظن الارادة البشرية وان كانت عاجزة عن خلق الحركة او عن اعدامها ليست بعاجزة عن قيادتها وتسييرها فاذا دفعنا كرة قدم لكي تكسبها سرعة معينة فان قوة الدفع واحدة مهما كان الاتجاه الذى اخترناه . اذ لا دخل للاتجاه في السرعة . وهذا لا يمنع من وجود الإرادة التي تقود القوة في تلك الحالة

— ان اعتراضك هذا يا عزيزي مغالطة قديمة

اذكر انه يلزم لكي تقود الحركه وتسيرها ان تكون قادرين على ايجاد الحركه فاصغ لما اقول . كرة القدم امامك على الارض فاذا ضربتها برجلك اي اودعت فيها كمية معينة من القوة اتجهت اتجاها معيناً لا تتحول عنه بمجرد ما فيها من قوة . وانت لا تستطيع ان تغير مجرى اتجاهها الا اذا تحولت عن مكانك وضربتها ضربة اخرى تسير بقوتها . اذن لا معنى لما تقول . والا فكيف تظن ان الارادة هى الموجدة للحركه مع انه يلزم ان يكون للموجد قوة لا حد لها وليس لارادتنا تلك القدرة الغير المحددة . سألني احد الشابين اللذين لا

اعرفهما مبتسماً

— تزعم ان جميع اعمالنا مقيدة بالظروف والمؤثرات التي تحوط بنا وتجعلنا نتبع في تصرفاتنا ما يطابقها

— ثم ؟ . . .

— ألا تظن اننا نأتي في كثير من الظروف باعمال لاعهد لها ولا سبب بل نعملها بدون اكتراث ولا تفرقة . مثلا اذا اردت ان تؤدي ديناً عليك فانك تناول مقداراً من دراهمك لدائنك دون تفريق بين ما تدفعه وما يبقى معك واذا هممنا بالمشي بدأنا بالرجل اليمنى او اليسرى من غير باعث على البدء باحداهما

— هل انتهى كلامك ؟

— نعم

— فهمت . اسمع . ان مثل الافعال التي ذكرتها لم تكن من غير سبب ولم تأت عفواً بل لا بد لها من سبب باطني (ولو جهلناه في الغالب) يدفع بنا الى ما نعمل

— وما هو ذلك السبب ؟

— لا أعرف بالضبط ما هو فانه يختلف باختلاف الاشخاص

— دعني اضحك قليلا . لله درك . ما امهرك في التخلص من

كل مازق . فكلما عجزت عن الجواب قلت انك تجهل السبب والحقيقة ان لا سبب هناك مطلقاً ولو ساءك ذلك

— ليتك تدري كم تحدث في نفسي من السرور بتسرعك في الاستنتاج على مافي اسلوبك من لطف . ولكن كيف تصورت اني أتخلص من محاورتك بقولي آنفاً (لا بد من سبب لكل فعل ولو جهلناه)

اما مثلاك اللذان ضربت فاسبابهما ظاهرة

— أواثق انت مما تقول ؟

— طبعاً : وما حكاية قضاء الدين الا مغالطة صغيرة واهنة

تصور ان حان دفع دينك ودراهمك امامك فوق المنضدة او فيما يقرب من متناول يدك فان كنت بخيلا ترددت كثيراً قبل ان تأخذ منها . ثم تضطر الى ذلك فتختار القطع العتيقة وتستبقي الجديدة فهل تسمي ذلك عدم اكتراث او تدبر . واذا لم تكن بخيلا مددت يدك فاخذت اقرب القطع اليك ولا تتجشم اخذ البعيدة وهذا بناء على قاعدة (اخف الامرين كلفة واقربهما متناولا) وهذا ينافي عدم الاكتراث بل هو نوع من التقييد

واما حكاية البدء في السير بالرجل اليمنى او اليسرى فمالطة واهية البنيان ايضاً

كلنا نلقن في المدرسة حال التمرين على السير ان نبدأ برجلنا اليسرى فيصير ذلك عادة لنا ومن جهة اخرى نلقن بمقتضى اعتقاد قديم انه يلزم البدء فى السير بالرجل اليمنى تيمناً . فترى الكثيرين يفعلونه قصداً وباستمرارهم عليه مدة يصير عادة راسخة فيهم

فمن ذلك ترى اننا اذا بدأنا السير باليمنى او اليسرى نفعل ذلك اما بالاعتقاد او العاده وكلاهما سبب يقيد عملنا لدرجة

— شيء عجيب . ولكنى اشعر بأني حر غير عاجز ان افعل ما اشتهي

— اما انا فيؤسفنى ان أقول لك انك مخطيء

— كيف تقول ذلك ؟ ألا ترى انى أستطيع القاء هذه الكوبة على الارض فاكسرها ؟

— هذا فى استطاعتك

— ألا ترى اني استطيع ايضا تركها سليمة فوق المائدة

— وهذا في استطاعتك . ولكن فعلك هذا او ذاك لا يبرهن ان لك الحرية التامة على فعل ما تريد

— كيف ذلك ؟ امر عجيب . اذا كان في امكاني كسرها او تركها فكيف لا أكون حراً ؟

— نعم انت غير حر . أتريد ان توهمني انك حر باستطاعتك كسر الكوبة او تركها سليمة . ولعمري انك لواهم . اجبني اولا . لماذا تريد كسر الكوبة

— لماذا ؟ كي ابرهن لك على أني حر

— انك لن تبرهن بذلك على شيء البتة لانك انما تعمل ذلك لعرض هو ان تبرهن على حريتك . فبكسرك اياها تقصد تكذيبي بأظهار قدرتك على كسرها متى اردت . أتدري على اي شيء تبرهن بعملك هذا . انك تبرهن به فقط على انك رجل عنيد لانك ان كسرتها لتبرهن بكسرها على حريتك وتخطئني برهنت على عكس ما تريد اي على انك مقيد خاضع لعنادك ورغبتك في معارضتي وقد نشأت عندك تلك الرغبة وانت لا تشعر بها . ان اللص حين يسرق لا يطيع الا ميله

مسبب للسرقة وانت كذلك لا تطيع الى طبعك الغالب عليك المسيّر لارادتك المقيد لعملك تستطيع ان تسمي ذلك حرية . اسمع انك ان هممت بمعارضتي فذلك بالرغم منك اذ لا تستطيع ان تفعل غير ذلك فكيف تجرأ ان تتكلم عن الحرية مع ان كلامك بهذه الكيفية ينافي الحرية . هل اتاك حديث مذهب التقييد البسيكولوجيك Determinisme pyschologique ان القائلين بهذا المذهب يبنون مذهبهم على التطورات الفكرية فقط . فهم يقولون ان الخواطر الطارئة على القلب مقيده بالطواريء التي طرأت قبلها اي ان كل خاطر يخطر على قلبك ما هو الى نتيجة خاطر سبق وهم يعللون ذلك باستقصاء افعال الانسان وتيسر ادراك ما سيعمله قبل وقوعه .

فباستقصاء اي عمل اختياري للانسان يتضح انه مسبوق دائما باستشارة نفسانية وان العمل بعد هذه الاستشارة يكون دائما بمقتضى اقوى الاسباب . مثلا اذا كنا نعرف تماما زيداً من الناس فاننا يمكننا ان نخبر بلا تردد عن السلوك الذي يسلكه في اي ظرف من ظروف حياته . نعم قد نخطئ احيانا في حكمنا عليه ولكننا في تلك الحالة لا يجب ان ننسب الخطأ

الا الى جهلنا بحقيقة جبلة زيد او الظروف التي احاطت به ويعتمد هذا المذهب (الدترمينزم) على مبدأين :

انه لا عمل بغير سبب ومتى كانت الاسباب هي هي والظروف التي احاطت بها لم تتغير فالنتائج التي تتسبب عنها لا تتغير ايضاً فمن ذلك يتقرر ان كل الاعمال مقيدة باسباب وان الحرية ما هي الا أمر تخيلي . يظهر ان كل ذلك غير كاف لاقناعك لاني ارى عليك سيمى الواثق من نفسه

ربما كنت مصيباً . يرغم الفلاسفة المعصريون باننا لسنا واثقين إتّاذ الفعل من الاستسلام لاسباب وعواطف في ثنايا النفس وما اكثر الميول النفسية التي تجذبنا الى أتيان هذا العمل او ذاك في كل لحظة ولا نشعر بوجودها . فنحن في نظرهم مسيّرون غير مخيرين .

ان من نُوّم تنويماً مغنطيسياً قد يؤمر بارتكاب جرم ما في غده في ساعة معينة منه فاذا كان الغد ارتكب ذلك الجرم وهو لا يشعر انه مسوق لارتكابه بقوة خارجية

نحلم احياناً اننا نتكلم بألفاظ تدل على فكر وارادة ونظن في حالة الحلم اننا نقول ذلك بارادتنا واننا قادرون على تفيد

ما تقول . والحقيقة غير ذلك . والسكران يتكلم كلاماً يتجاوز حد المعقول كما يتجاوز ما في قدرته وهو يظن انه مالك لقواه العقلية . اذن شعورنا يغالطنا في حال النوم واليقظة والمرض والصحة

نظن أنفسنا أحراراً كلما تمت علينا الاسباب القاضية بافعالنا وننسب لانفسنا الافعال التي تنشأ من المؤثرات الداخلية والخارجية

— اذا كان الامر كما تقول فلا معنى للواجب والمسئولية والقصاص ولا للاثابة او العقاب

— قبل ان أجيبك على استنتاجك هذا اخبرني هل أنت معتقد بصحة الدترمينزم (التقييد) الذي بنيت عليه هذا الاستنتاج ؟

— ان لك طريقة حسناء في تجنب الاجابة عما تسأل عنه

— أنسب لي ما شئت فليس ذلك بمانعي عن اجابتك . ان «التقييد» لا يمحو من العقل ادراك الواجب والمسئولية ولا التمييز بين الخبيث والطيب . فالانسان مهما كانت اعماله محددة باسبابها فلا يزال متمتعاً بعقل يدرك به أحوالا أرقى من حاله

التي هو عليها ويطمح الى غاية يجاهد في الوصول اليها كي يكون أرقى حالا. وهذه الغاية التي وضعها نصب عينيه تظهر له أسمى درجة فتجذبه الرغبة للوصول اليها ولا يلبث عمله لذلك ان يصير أمراً ضرورياً فيكون مجبوراً للوصول الى غايته ومن هنا يصح للفلاسفة ان يقولوا ان مثل هذا الرجل مقيد بغايته اما مسألة المسئولية والارتياح الى الاثابة او العقاب فيكفي لفهمها ان نفكر قليلا في العلائق الموجودة بين الانسان وبني جنسه. ان كل الاعمال النافعة للمجتمع هي طيبة ويجب تشجيعها لان تشجيعها واسطة لنموها وتعددها وكل الاعمال الضارة يجب معاقبتها لان عقابها واسطة في تقليلها او محوها فالغرض من المسئولية التضامن بين افراد المجتمع في اداء ما يجب لكل او عليه لغيره والغرض من الاثابة او العقاب فائدة المجتمع كذلك

— اذا كان الامر كما تقول فلا يجب علينا ان نغضب من شتم او ضرب او سرقة

— هو كذلك. فمن العبث البين ان نغضب على من اساءوا الينا اذا عرفنا أنهم ليسوا الفاعلين الحقيقيين لتلك الاساءة. ألا

ترى اني لا أغضب منك لانك تضائقني بأرائك ؟

لا تنسَ صحة العكس . فلا داعي لشكر من أدى واجباً نحوك ولا للامتنان ممن احسن اليك لانه يفعله مرغماً بناء على نظرية التقييد فانت لا يجب عليك شكري لما علمتك الآن من الاشياء التي كنت تجهلها . ولكنك للآن لم تقل لنا لماذا تعتقد وجود الحرية

— طبعاً لانك شغلت الوقت كله بكلامك . من جرّنا الى هذا الموضوع ؟

— هو صاحبنا سالم بحكايته مع ناظر مدرسته وقلنا في اول الحديث ان الناظر غير ملوم فيما عمله معه واتفق انك لم تشاركنا في هذا الفكر فجرت بيننا تلك المناقشة

— نعم . تذكرت الآن انما يظهر انك مقتنع تمام الاقتناع بصحة نظرية التقييد ولكن سالماً بالرغم مما يتظاهر به من موافقتك لا يحجم عن التهكم على ناظره كلما سنحت له الفرصة

— كلا ! ان سالما يحتقر ذلك الرجل لدرجة يترفع معها عن الحقد عليه فاذا تكلم عنه فانما هو يعمل بما يوافق رأى بعض فلاسفة الالمان القائلين ان الصمت على الاذى دليل على الحقد

ولا يصدر الحقد من قلب سليم طاهر الشعور ولا شك
ن الاصرار عليه ليس من خلال النفوس الأبية
ذا تراه يتكلم عنه كما يتكلم الانسان عن رجل لا يكترث
به . فما ظنك ؟

— ظني انك عقدت النية على معارضتي وانك حسبتني
أبله او ساذجاً لا يزن ما يقول

— حاشا ان أكون كما قلت ! واني لا أسمح لنفسي ان ارى
مثله في مناظر قبلت ان اناظره لا سيما من كان متعاماً مثلك
حاصلاً على شهادة البكالوريا . اني أجلّ التعليم في مصر وفي
مدارس الحكومة على الاخص . قد اجمعت الاراء على ان
حائزي تلك الشهادة هم الاذكياء فكيف أتصدى لخرق هذا
الاجماع او احدث نفسي به

— وماذا يدل الحصول على اي شهاده ؟ اني لا اجده دليلا
على حدة الذكاء وغزارة العلم اللهم الا اننا نجهد النفس طويلا
لننجح في امتحان هذه الشهادة فكم غبياً حصل عليها ولم يبدُ منه
ما يدل على النبوغ او الفضل

لست من رأيك . فان المجتمع لا يحكم على انسان

بمقتضى ما تقول بل بما حصل عليه من الشهادات الدراسية في طفوليته

— أرأيت كيف تقصد معارضتي دائماً . وتبين لي ذلك منذ مجيئك فقد كنت تنظر اليّ شزرا . فلنوقف هذه المناقشات

— كلا ! لقد اخطأ ظنك بي (فان الامر بالعكس) اذ أجد في حديثك تسلية وترويحاً بل اني معجب لأفكارك وربما أثرت على افكاري

— أتسخر مني وتضحك ؟ ؟

— اي نعم يا عزيزي . لان ذلك من طبعي ولا استطيع تركه فأني اضحك من اخوتي واصدقائي وممن اصادفهم في الطريق . . . . . بل اضحك من نفسي

لماذا تريد ان احتقرك بألا ألتفت اليك ولا اكترث بك ولا اكتم عنك اني اذا التفت لاحد فلأني اجد منه ما يضحك فاضحك .

لما حضرتُ كنتَ مشغولا بالحديث بصوت ظاهر العظمة والفخفخة . فما الطف . ولقد صغيت لحديثك ملياً وانا اضحك بفؤاد منشرح مما تقول وتورد من لذائذ الافكار الراقية

ولما رأيتك لا تنقطع عن الحديث فكرت في ان اتكلم مثلك الى ما شاء الله وقد فعلت ولكني آسف اذ لم استطع ان اسر الحاضرين بحديثي واضحكهم كما كنت تفعل . اسمع اسمع هل لك ان انصحك نصيحة مخلص فتخلع عنك رداء الظهور وتخشع من صوتك ولا تحاول ارغام سامعيك على القول بسمو مداركك بزخرف الحديث واعلم اني لم اقصد بمجادلتك طويلا الا لأريك انك في غرور واننا كلنا نكره كل مختال فخور متأنق في حديثه يظهر في مظهر المعلم بين قوم جهلاء . فلماذا قابلتنا بخشونة اللفظ والصلف ؟ ألاننا لم نشاركك في رأيك . لئن كان هذا رائدك فقد اخطأت

نعم جادلتك لتسلية النفس وقضاء الوقت والضحك ولو جادلك غيري لصرّح لك بجلي العبارة انك مدعٍ بالعلم وأحرجك بين الحاضرين وسخف آراءك تسخيفاً

أجل لا يخلو احد من العيوب ولا نستطيع نكران ذلك فكل منا له عيوب كثيرة يشعر بها ويجتهد ألا تظهر منه . وقلما نجد من يحمله الذوق والطيش ان يدعي كمال التهذيب أو ان يسدل الغرور غشاوة سميكة على بصيرته فيتصور نفسه الفذ

اللبيق . على ان اصلاح امرك بيدك لو اردت وانه لهين يسير . فلقد كنت مثلك في طفوليتي تدفعني الرعونة الى التداخل في كل حديث لا تظاهر بالذكاء والفصاحة فوقعت يوما بين مخالب رجل جمع بين الدهاء واستقامة الطبع والخبرة بما يؤثر في النفس والشعور فبدأ يهزأ بي بلطف ويريني من الاشارة والتعريض في القول برهاناً على طيشي وجهلي فلم تأخذني من ذلك الحين رغبة للاندفاع في حديث لا يعنيني الدخول فيه عملا بالحكمة القديمة (اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) فان كان ولا بد من الكلام فليكن كمذهب القائل

تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حيّ والسكوت جماد
فان لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك من غير السداد سداد

لن أنسى أبداً ذلك اليوم الذي أضحك عليّ لسماجتي عشرين رجلاً او يزيدون . أجل ان الصمت أمر ممدوح واحياناً يكون ضرورياً . قال لي صديق اوربي يوماً اذا كنتَ مع سيدة على انفراد فلا تجتهد ان تكلمها كي لا تكون ثقيلا على نفسها فاذا دعوتها للركوب معك في عربة مثلا فلا تظن أن

الواجب واللياقة يقضيان بمحادثتها بما يسر فؤادها ويشرح صدرها فيفوتك ان ذلك ليس من الادب في شيء . فاذا قضت الظروف ان توجد مع سيدة وشعرت بضيق في نفسك فتأكد انها متضايقة مثلك ولكن اذا جاز لك ان تتضايق وحدك فلا يجوز لك ان تضايق سيدة في صحبتك وبالأحرى ترى انه يجب عليك ان تزيل ما في نفسها بأية وسيلة كانت فتاخذ في محادثتها مجتهداً في ادخال السرور عليها وان تجاذبها أطراف الحديث برقة وملاينة ما أمكن . فاذا كانت السيدة فطنة شعرت حتماً بانك انما تفعل ذلك لاعتقادك أنها سئمة وقالت في نفسها . ان زميلي يظنني متضايقة وحيث انه يراني كذلك فلا بد أنه هو نفسه يشعر بضيق في هذا الوقت . فترى أنك بعملك هذا أفهمتها أنك ضائق الصدر في حضرتها وهذا لا يليق بمؤدب ان يفعله اذن يجب عليك الا تجتهد في محادثتها كما يظنه بعض الناس من الواجب والظرف

على ان صديقي كما رأيت لا يمتدح الصمت فقط بل يريد ان يفهمنا ان الكلام على النمط المتقدم منافٍ للآداب . وغني عن البيان ان دعواه لا تخلو من المغالاة

— اراك لبثت تتكلم مدة طويلة مع انك توصينا بالصمت وتحبذه

— أجل فلست بالكامل من بين الناس فعد كلامي عيباً . أنصح غيري بترك الاطالة في القول وأطيل

— أزف وقت الانصراف

ولما هممنا بالخروج قال لي

— هل لك ان ترافقني الى المدينة لنتناول طعام العشاء في أحد المطاعم ثم نذهب الى قهوة بها موسيقى

— اليك معذرتي واني آسف لعدم امكاني مرافقتك فيما أردت لاني تعب وليكن ذلك في فرصة أخرى

— لا أقبل منك عذراً ولابد من مجيئك معنا على أي حال . . . الخ

ولما رايت الحاحهم لم أرد ان أطيل رجاءهم (لي) قلت

— اني معكم فهلمّ .

وفي اثناء انصرافنا اقترب احد الشابين من الآخر فأسر في اذنه حديثاً سمعته وهو يظنني لم اسمعه فقال

— هذا الشاب نموذج غريب في خلقه ومشربه . سنسقيه

حتى يسكر وحينئذ تتوق نفسه الى الخطابة والهذيان فنسمع منه حديثاً اطول من ليالي الشتاء ونشبع منه ضحكا وسخريه

فقلت في نفسي يا لله ما أغباهما من شابين مفتونين وحيث اضطررت لمرافقتهما هذه الليلة فلا بد لي ان اكون الضاحك منهما الساخر بساطتهما وغرورهما مهما تكلفتُ في سبيل ذلك . واخذت افكر فيما عساني ان افعل فخطر لي ان ادعو ابن خالي ليكون معنا فاستعين به وفعلا دعوته فأجاب ثم اوعزت اليه ان يفهمها بما يمكنه من التأثير اني غريب الاحوال بحر علم ذاخر ضليع بالفنون كثير الاطلاع غزير المادة شاعر ناثر أديم البحث في مسائل الجغرافيا والتاريخ القديم والفلسفة واني كنت دائما اول فصلي (وان لم اكنه أبداً) وبالأختصار اني أفوقهم علماً وادباً وذكاء وقوة حجة وان كل ما قلته حق مؤسس على الحقائق العلمية وآراء اعظم الفلاسفة العصريين وان يردف ذلك بقوله ان لي حالات مدهشة وافكار تخالف الناس على خط مستقيم . اوعزت اليه ان يغريهما بذلك بينما اكون بعيداً عنهم في مركبة الترام أقرأ جريدة على انفراد حتى يكون قوله ابلغ في التأثير وادعى للايمان به فينثنوا عن فكرة

الضحك مني ويتهيباني

ولما وصلنا المدينة لاحظت ان ابن خالي افصحها تأثيراً واسترهاباً وسحر عقولهما حيث اقترب مني احدهما موجساً وسألني اين اود الذهاب فقلت كما تريدون فركبنا عربة سارت بنا الى مطعم يمكن لمن اراد الطعام منه ان يتناوله في العراء

وكان المطعم في حديقة ذات اشجار باسقة الغصون متسعة الاطراف وقمر السماء كانه الريال المصري الجديد يرسل اشعته الفضية على تلك الأشجار المورقة فتنفذ من خلالها ويقع ظل اوراقها على ممشى الحديقة فيرسم خيالها شكل قطعة عظيمة من (الدنتيلا) السوداء قد انبسطت على الرمل الابيض وقد برق الجمال بين الافنان وتلاعبت يد النسيم بالاغصان تثير كامن الحب ولواعج الأشجان

فأخذنا مجلسنا حول مائدة وطلبنا العشاء . وكان بجانبنا جندي قد جلس يتشاءب سئماً بينما كان خلفه رجل متأنق قد لبس جوربا فاقع اللون يظهر من اعلى حذائه الضيق . يسارق النظر سيدة على مقربة منه وله سحنة جامدة وسمت صناعي يستر به مغازلته كأنه صورة رسمت بالزيت وحولها

شكل حديقة او صورة قصت من ذيل جريدة خياط

ثم اخذ الناس في الانصراف بعد الطعام ولم يبق الا الجندى العنيد مرتكزا بمرفقيه على المائدة يغالب السامة .

أقبل غلام المطعم يسألنا ماذا نشرب من الخمر اثناء العشاء فنظر احد الشابين الى الآخر ثم طلب كأس وسكي والآخر كوب جمة (بيرة) وقد طلب ابن خالي كوبة ماء ثم سألنى الغلام

— وانت ياسيدى ؟

— انا ؟... اعطنى كاساً من الوسكي... لا . لا قف ... انى افضل الماء القراح

فقال احد الشابين

— بل تناول كاساً من الوسكى فهو انفع لصحتك

— كلا اشكرك

— ان الشراب جيد مقوٍ بشرط ألا يكثر الشارب منه فضلا عن انه يبهج الخاطر ويدخل على النفس السرور

— نعم ان الشراب لذيذ وان الشارب ليخال نفسه ملكاً حاكماً على رقاب العباد

هنا ضحك الجميع وقالوا « هذا صحيح » ثم سألنى احدهما

— ألك عادة في الشرب ؟ ؟

— نعم اشرب كثيراً

— ماذا تشرب ؟

— اشرب شاياً . . . .

فنظر سائلي الى رفيقه كأنه يساله عما اذا كنت مجنوناً او انا اهزأ به ثم قال

— امازح انت انما اسالك عن صنوف الخمر ؟

— عفواً لا اشرب منها الا قليلا جداً في ظروف خاصة مراعاة لصحتي

— قلت انك تشرب الشاي بكثرة واي لذة تجد في شربه

فقلت في نفسي قد جاء دورك (لبلفها) للسخرية منها وان تخاطبها بصوت خشن وتلقي ما تشاء من المحاضرات . فأجبت .

— ان الشاي يسكر بقدر الكحول ولكوني مريضاً بالامعاء اشرب الشاي كي يصلحها ولذلك اتعاطى عشر كاسات كل يوم على الاقل من الشاي الاسود النقي . ان الشاي منبه للاعصاب ومهيج لها طارد للنوم فاذا مضى على تناول تلك الكمية ثلاثة

اربعة ايام مع قلة الطعام احس بشعور لطيف كانى ثمل ثم سمع في اذني ضرباً من الطنين يصل الى رأسي . واعصابي كانت هادئة قبل تلك المدة تتعاصى عن اطاعتي وتتغلب على رادتي لشدة ماتهيج وتضطرب بشرب الشاي من جهة وقلة النوم من جهة اخرى فأصير كمن يسوق زوجا من الجياد قد جمح وانفلت زمامه من يديه الضعيفة وهو ذاهل لا يهتدي كيف يصنع . وبكثرة ما أهيج من اعصابي بهذه الوسيلة بينما اعالج معدتي في الوقت نفسه يطرأ عليّ تخدير وتحدث عندي نشوة تجعلني اتخيل تخيلات عجيبة كالتي يتخيلها شارب الخمر تماماً فاشعر بميول غريبة وقد اظنني ارق العالم وألحظ غيري بعين العظمة واخاطب نفسي احياناً بصوت المحتقر وكثيراً ما اشعر بالميل الى البكاء حينما ارى اخواني يضحكون من كل شيء . يضحكهم الذكي كما يضحكهم الغبي . والشحاذ والغني . حتى لتراهم يضحكون من مارعثر فكسرت ساقه واذا ذهبتُ الى « السينماتوغراف » وانا في هذه الحالة خرجت منه اشد وهناً وأضيق ذرعا اميل الى امور عظيمة واحوال شاذة كأن اشتهي الذهاب الى ميادين القتال لانقذ جريحا او اغيث ملهوفاً او اوامي الارامل

والايتام والثكلى

اشعر ان كل شيء يجذبني اليه وتكاد عيناي تذرف لمنظر (أرغن) لشحاذين او صغار يلعبون على الارض او شيخ عاجز يتسول

فانا انظر اليهم كأنهم صور خيالية وبعبارة اخرى كما ينظر الشارب الثمل

يظهر انكم تشكوُّن في صدقي فاذا كان هذا حالكم فجربوا مثلي. كلوا بضعة ايام خبزاً يابساً مغموساً في الشاي وانتم ترون بانفسكم ان التخذير بهذه الوسيلة ألذ من تخذير الخمر وانه يستمر اكثر منه والشاي لا يُحدث قيئاً ولا صداعاً »

وبعد ان مكثت مدة أحدثهم عن تأثير الشاي بدت على الشابين علامات الدهشة والاستغراب فاشار اليّ ابن خالي بالكف عن هذا الموضوع ليموّه عليهما بموضوع آخر. وبعد هنيهة قال لاحدهما

— أتعرف كتاباً مسلياً او رواية مروّحة ؟

— اني لا أقرأ الا في الكتب الدراسية مدة الشتاء وفي الصيف استريح واتريض

فالتفت اليّ ابن خالي قائلا :

— ليتك تقتنى روايات ملهية بدل تلك الكتب التي تقتل الوقت في العكوف عليها

عند ذاك قال لي احدهما :

— يظهر انك لا تقرأ الا الكتب العالية الجدية

— بالعكس فقد كان آخر ما قرأت كتاباً في الاحلام

— في الاحلام ؟ وما دعاك ؟ ... واي فائدة ؟ ...

— لا لشيء . بل من باب الاستطلاع . . . سألت نفسي يوماً كيف نحلم وهل ما يقال عن الرؤيا حق وعما اذا كانت تنبئنا عن المستقبل ؟

— حسناً فعلت ولا بد ان في هذا الكتاب احسن تسلية . وقال الآخر :

— اني لم افكر في ذلك قط والآن أتشوّق لقراءة كتاب في الاحلام . فقلت

— لست متأكداً من أنه يروقك ولكنه لا يخلو من امور مسلية

هل سألتم انفسكم مرة لماذا نضحك حين السرور

ونبكي حين الحزن ؟ ؟ . .

— الحق ان هذه النظرية جديرة بالتفكير وان لم يخطر ببالنا ان نفكر فيها من قبل الخ .

هنا رأيت الشابين يعيرانني سمعهما بجد وشغف وقد انقطعا عن محاولة الضحك مني وظهرت على ابن خالي شارات السرور لتمكنه من تغيير مجرى الحديث الى ذلك الموضوع دون ان يشعر هذان بغرضه . وفي الواقع لولاه لما استطعت ان أفعل شيئاً من ذلك

وبعد سكوت لم يطل قال احدهما

— أ لك أن تشرح لنا شيئاً مما قرأته في الاحلام فأني أشعر بميل شديد لمعرفة شيء عنها

فقاطعه الثاني قائلا لي

— لا ! لا ! أرجوك أن تبين لنا أولاً لِمَ نضحك في السرور ونبكي في الحزن فيسيل دمعنا ؟

وبينما هما يتنازعان على تقديم الكلام في احد الموضوعين على الآخر ساردني ابن خالي بلطف فقال

— قد سنحت لك الفرصة لتسحر عقلهما وتحملهما على تصديق كل ما تقول فهما على استعداد تام لذلك وعليك ان

تتظاهر بوقار المعلم فيما تلقيه عليهما حتى لا تفهمهما انك ساخر بهما

تريث قصداً حتى تناولت صفحة الارز وجرعة ماء ثم شرعتُ في الكلام والشابان منصتان مصغيان كما يصغي طلبة الأزهر لاساتذتهم اثناء الدرس

— لست في حاجة ان اذكر لكم تعريف الحلم فقد لا تخلو ليلة من رؤيا منشؤها لدرجة عظيمة من تأثر الحواس . ان الانسان يفكر في حال النوم كما يفكر في اليقظة (١) وكثيراً ما يفكر في حل مسألة مثلا قبل النوم ثم ينام من غير ان يهتدى الى حلّ ويظل فكره مشتغلا بها اثناء النوم بالرغم منه . وقلما تتخدر اعصابنا بالنوم لدرجة نفقد معها الشعور والحواس كلها تماماً . فالاذن مثلا تلبث سامعة لدرجة ما

وحسنا الباطني يلبث متصلا بسير الحياة الخارجية ينبه الحواس الظاهرة لدى كل طارئ فشعاع ضوئي قوى أو رائحة شديدة أو ملامسة كذلك توقظ المرء من منامه . فأن

« ١ » اذا كان النوم عميقاً فالنائم لا يذكر تفكيره بعد يقظته اما اذا كان غير عميق (وأغلب ما يكون ذلك قبيل الصباح) فانه يتذكره ويتصور ما رآه وهو ما نسميه بالمنام

كانت ضعيفة أحدثت فيه شعوراً دون ان توقظه ومن ثمة تتوارد علينا محسوسات كثيرة بمؤثرات خارجية او داخلية (كعسر الهضم والتشبع بفكرة) ومن هذه المحسوسات اللطيف والسار ومنها المزعج والمحزن تمر متسلسلة آخذة بعنان الفكر المتخدر بالنوم . وتاثير المخ إبان النوم من العوامل القوية .

ان تأثير حالنا المخية (حالة المخ) والدورة الدموية لمن الاهمية بمكان عظيم فلذلك تختلف الرؤيا باختلاف ما نكون عليه من الحالات فحينما تكون الصحة معتدلة والنفس مبتهجة تكون الرؤيا لطيفة سارة ولها حال آخر اذا اعتل الجسم وضغطت على النفس الهموم فتصطبغ أحلامنا بصبغة الجسم والنفس . وعلى اي حال لا ينبغي ان تعتبر الاحلام صورة امينة لما يحويه المرء من خلق وطبع وان قرر ذلك بعض علماء النفس . فقد تفيض على النفس فيوض في حال نومها لا يستطيع المرء جمع شواردها اذا ما قام من نومه واننا نعمل في منامنا اعمالا صورية لا نستطيعها في اليقظة . يزعم ذلك البعض من علماء النفس ان الاحلام تدل الى حد ما على حال المرء واخلاقه لأننا نتقيد في يقظتنا باحوال كثيرة كالتأدب وخشية الجمهور ومراعاة المقام

وتلك قيود تكون النفس طليقة منهـا في حال نومها . خذ لك مثلا رجلا يرى في منامه مناظر طبيعية ويتأثر من منظرها جد التأثر يكون ذلك دليلا على ولوعه بفن التصوير او استعداده له . أما الذي يحلم كثيراً بسماع الانغام الشجية والاصوات الرقيقة فاحلامه هذه دليل على انه ذو اذن واعيه او انه مغرم بفن الموسيقى وكذا البطن الجشع فانه يتصور الاطعمة اللذيذة ويكاد يذوق طعمها في رؤياه فكل يرى في منامه ما يحبه في اليقظة حبا جماً اوما يلفته اذا رآه افلا نستطيع امام هذا الرأى ان نقرر أن الرؤيا دليل على خلق الرائي وطبائعه وما يميل اليه ويشتهيه في يقظته ؟ ولكن هذا رأى مردود عليه فان الدعامة القائمة عليها اخلاق المرء هي الارادة ولا ارادة له وهو نائم .

فتراني في حيرة . أأقول ان الاحلام تكشف الستار عن خلق الرجل ام غير ذلك ؟ ولكن الثابت اننا نرى الامور مكبرة بعيدة عن حقيقتها مشوّهة العوامل التي احدثتها فتسمع خفيف الصوت صياحا مزعجا وتحسب اللذعة الخفيفة ضربة مهند او وخز سهام والحركة البسيطة وقوعا في هاوية ومن جهة اخرى يظهر على الوقت القصير الذي يستغرقه الحلم انه وقت طويل

والزمان بعيدة فقد ترى في زمن وجيز ما قد يستغرق من وقتك اياما بل اشهراً للطواف به او لعمله. وقد أكد لي بعضهم ان أطول الاحلام لا يستغرق الا بضع ثوان . وهذا حلم الراهب « موري » Maury فقد رأى في منامه انه يعيش في ايام الثورة الفرنسية وبينما هو جالس يقرأ في جريدة اذ القت السلطة القبض عليه وزجته في اعماق السجون بتهمة التآمر على العرش وقدم للمحاكمة بعد ان استغرق التحقيق ثلاثة اشهر وفي يوم الجلسة دافع عن نفسه بخطبة طويلة ثم صدر الحكم باعدامه فأخذوه الى تلك الآلة الجهنمية (الجيليوتين) فنظر اليها وخطب قليلا ثم سطحوه وسرعان ما سقطت رأسه عن جسمه . واستيقظ في الحال فرأى حديدة من سقف سريره قد سقطت على عنقه . وانه لمن البعيد ان يكون قد صادف وقت رؤياه قطع رأسه بالسكين ووقوع تلك الحديدة في آن واحد ولكن المؤكد ان تلك الحديدة هي التي ايقظته ونستنتج ان وقوعها هو الذي سبب هذا الحلم الطويل في طرفة عين . واظن ذلك كافيا ان نعلل رؤيا من يسمع قصف المدافع وقرقعة القنابل كأنها تنفجر فوق رأسه وصفير الرصاص

ناشئ من هبوب الرياح وتحريكها شبابيك النوافذ وكثيراً ما نشاهد ذلك في ليالي الشتاء الطويلة حين اشتداد الانواء وهبوب الرياح فيرى صاحب الحلم حين استيقاظه من نومه صفير الهواء ويسمع حفيف الاشجار وخرير المياه

ايمكننا اذن ان نستنتج ان تلك العواصف هي التي تسبب امثال هذا الحلم ام يكفي ان نقول بأنها ساعدت على تكوين الحلم بهذه الصورة وهذا مرجوح لأن الريح لم تهب لا ننا حلمنا بل نحن حلمنا لأن الرياح هبت فأثرت في نوافذ الحجرة واحدثت اصواتا قوية

وعلى كل حال انهم للآن لم يبتوا شيئاً فيما يختص بأكتناه الاحلام . وقد قرر كثير من العلماء ان الرؤيا خاصة الهام تنبئ عن الغيب . أصحيح ذلك ؟ ان الصحيح المجرب ان الاحلام التي تنشأ من ألم جسماني تنبئ لدرجة بوقوع ما يتهددنا من الامراض . فانا أحلم مثلا انهم يشقون كتفي وبعد ذلك بيومين تصيبني نوبة (روماتزم) شديدة في كتفي . وليس بغريب ان يرى تلميذ مهمل انه رسب في امتحانه ثم هو يسقط حقيقة فيه بعد رؤياه بايام فهذا التنبؤ وامثاله ليس بعجيب ولا مجهول السبب

وقد قال (فلتير) « ان الاحلام ضرب من التشاؤم فالرجل المغموم لمرض عزيز له قد يحلم ان مريضه مات فاذا مات المريض في الغد او بعده عد الرجل ذلك الهاما أخبر به عن الغيب . فالناس لا يعون الا الاحلام التي يتم تأويلها اما الاخرى وهي الاكثر فسرعان ما ينسونها » (١)

« ١ » اذا كانت الاحلام اسبابها اشياء خارجية فكرنا فيها . فما الذى يجعل المرء يحلم بصديق له بعيد عنه لم يره منذ سنين ولم يخطر له على بال في اليقظة ؟

قد يمر بخاطر الانسان صورة صديق له دون ان يفطن للسبب وذلك كأن يصادف فى الطريق رجلا يشبه صديقه او يرى رجلا يشبه خادم صديقه أو يرى فى حانوت فاكهة يحبها ذلك الصديق وقد اكلها هو كثيراً في منزله او نحو ذلك مما يجعل الصديق يخطر بباله دون ان يشعر ويكون ذلك كافياً لتسبيب الحلم

ثم ان بعض الناس يحلمون بمناظر في مدن لم يروها . فاذا ما ذهبوا اليها بعد مدة طويلة وجدوا المناظر التي رأوها في المنام فيستنتجون من ذلك نظريات مضحكة ويأتون بتفاسير لا أساس لها ويفوتهم انهم ربما قرءوا أو سمعوا أوصاف مدن كثيرة وكانوا في كل حالة يتصورون صوراً خيالية غير واضحة تماماً لكثرتها ولكنها قد تكون منبع احلامهم فاذا سافروا ورأوا مدينة جديدة خيل لهم أنها عين التي رأوها في منامهم والحقيقة انها تشبهها

وهذا هو السبب في اعتقاد من يعتقدون فى احلامهم انها تنبئهم عما سيحصل فى المستقبل دائما

وبين انواع الاحلام ما يسمونه (بالسومنبوليزم) او الحلم الفعلى ففي الحلم العادى لا تبدو لنا الا صور واهنة لا قوة فيها لتجعل النائم يأتي عملا حقيقياً و بعبارة اخرى الحلم العادى لا وجود له الا في عالم الخيال فكل ما نراه او نعمله في النوم امور وهمية ولكن الامر يخالف ذلك في الحلم الفعلي ففيه يتحرك النائم ويتكلم بصوت ويعمل بعض الاعمال كأنه يقظ . هذا كل ما يحضرنى الساعة مما قرأته في هذا الموضوع ولكني مع الاسف نسيت اشياء اخرى مهمة للغاية

— الحق انه موضوع شائق مروح ولقد اتحفتنا مما قرأته بما فيه الكفاية

ثم تنازعوا امرهم بينهم واسروا النجوى بينما كنت متشاغلا باكل فاكهة واحسب ان ابن خالي قال لها

— هل صدقتماني الآن

وبعد برهة قال لي الآخر

— اتسمح ان تخبرنا لماذا ضحك ونبكي . وكيف ذلك ؟

— لا اكتم عنك ان هذه مسألة من اصعب المسائل ولم اتوصل بعد الى فهمها حق الفهم (١)

ساءلت الكثيرين عن سبب ذلك فما أجابني الا احدهم بطريقة معقدة لم افهمها لعدم المامي بعلم التشريح واجابني آخر بطريقة اوضح والظاهر انها مبنية على اساس غير متين وهذا ما قاله لي : « متى تكدرنا او حزنا لشيء أثر (مخنا) على المجموع العصبي بطريقة ما تزيد في سرعة الدورة الدموية فيصعد الدم الى رءوسنا ونشعر في ذلك الوقت بزيادة الحرارة . وهذا الدم يسوق امامه الى الرأس البخار الذي يقابله عند صعوده . ولا يخفاك ان اجسامنا تحتوي على مقدار كبير من بخار الماء ويظهر ذلك جليا متى نفخت بنفسك على كوب ماء او صفحة زجاج او بلور او صفيحة الخ . ما علينا . .

---

(١) لم اوضح سبب ذلك على حقيقته ولم اقصد قبل ما قاله العلماء فيه لعلمي انه لا يخفى على مطالع او شاب متعلم وهو على العموم مشروح بطريقة سهلة الفهم شرحا حقيقيا وافيا في كتاب (ديكارت) المسمى Traité des passions وقد وضع (برجسن) رسالة في الضحك ترجمت الى الانجليزية سماها Le Rire اما ما قلته فكفى لاقناع الشابين ولو انه مغالطة

هذا البخار يصعد الى الرأس ويطرق خلف العين (الرتينا) شبكة باردة فيتحول الى قطرات ماء تنحدر من العينين ادمعاً اظن هذا التعبير لا يأباه العقل .

اما الضحك فناشئ من عكس النظرية المتقدمة فمتى سرنا لرؤية صديق او صورة هزلية او لسماع نكتة تبطئ الدورة الدموية في سيرها فتنخفض درجة الحرارة ونحس بشيء من البرودة ونشعر براحة ولا يخفى ان البرودة ينشأ عنها انكماش . ولما كانت عضلات الوجه اكثر مرونة من سواها كان انقباضها بسهولة امراً بدهياً في حالة السرور . ومتى انكمشت العينان ارتفعت الوجنتان ويتبع ذلك انفتاح الفم فتبدو الاسنان ويسفر الوجه عما نسميه ابتساما وكثيراً ما يكون التقبض فجائياً مصحوباً بهزات عصبية في الجسم والصوت وهذا ما نسميه بالضحك وقد قال لي محدثي الذي أراد ان يطلعني على كل ما يعرفه في موضوع الضحك . .

ان ثمة أناساً يزعمون ان الضحك ينشأ من تقليد بعض صنوف الحيوان . وزعم (الدرويديون) الذين يظنون الانسان من

القرده ان منشأ الضحك راجع الى تقليد القرد ويفسرون ذلك فيقولون : اذا طرحنا لقرد تفاحة فانه يفتح فاه ويرينا اسنانه ويهدد من يحاول اخذها منه فهذا التهديد تحول شيئاً فشيئاً الى تبسم فضحك دال على السرور خال من التهديد . . .

فقال احد الشابين

— ان اكثر ما قلته صحيح على ما ارى

وقال الآخر

— اي نعم كل ذلك صحيح فهكذا نبكي وهكذا نضحك.

فغمز ابن خالي قدمي بقدمه كأنه يغريني بالاستمرار أو كأنه ينبهني الى صواب نظره فيهما من انهما غبيان وفي الواقع انهما ما نشئا يحبذان قولي رغم اظهاري الشك فيما اقول ولما رأى ابن خالي عزمي على الاستمرار في شرح هاتين النظريتين غير مجرى الحديث وكان قد سبق علمه اني قرأت شيئاً في (النظر) فقال

— لا ازال اسائل نفسي اذا كان ما قاله لي علي صحيحاً ؟

فسأل احدهما

— وماذا قال لك علي ؟

— انه حدثني حديثاً غريباً اذ قال : ان النظر يدرك طول الاجسام وعرضها اما عمقها فلا يدركه ويزعم ان تلك نظرية لبعض الفلاسفة

فقال احدهما

— ولكن ما برهانه على دعواه ؟

قال ابن خالي :—

— ان الاطفال بعد ولادتهم باشهر لا يدركون تماما حقيقة المسافات فتراهم يمدون ايديهم ليتناولوا شيئا بعيداً عنهم ظانين انه واقع في متناول ايديهم وقد يمدونها ليتناولوا ذلك جملة مرات وهذا ناتج من زيغ في البصر كلنا عرضة له بسبب تواتي الظلال والنور . . .

فقال احدهم

— هذا لا يدل الا على شيء واحد وهو اننا لا ندرك جيداً بالنظر مقدار العمق وهذا لا مراء فيه فلا ينافي اننا ندرك الاعماق بالنظر مطلق ادراك

فقال ابن خالي

— ليس ذلك كل ما قال علي فانه اخبرني بامور اخرى منها

انه اتضح من عمليات اجريت على اشخاص ولدوا عميا فابصروا بمجرد انتهاء العملية وقد سأل الطبيب بعضهم : ما اول ما ابصرت ؟ فاجاب : كنت احس الاشياء كانها تلمس عيني

من المعلوم ان كل شعاع ينبعث من جسم لا يصل الى العين الا من طرفه اي ان الاشعه لوقوعها عموديا على العين لا يصل منها الى الشبكة الا اسنانها المشرعة اليها واذن يكون من التطرف الادعاء بان العين تدرك العمق اللهم الا بمقدار حكمنا على طول عصا بمجرد مسنا طرفها لا غير .

ان الاشياء التي نراها يكون طولها وعرضها وعمقها في مستوى واحد . فهذا دليل على ان العين لا تدرك العمق فلو حددنا حجما برسم طوله وعرضه وعمقه على لوحة مستوية لتوهمنا ان له سمكا (عمقا) مع ان الامر بخلاف ذلك .

اذن رؤية الاعماق ما هي الا مغالطة ضوئية . على اني ارى ان هذه النظرية لا تخلو من الظرف .

ثم نظر اليّ فقلت له

— يجوز ان تكون كذلك واظن اني عثرت ببعض

اعتراضات عليها

فقال لي احد الشابين

— اذن انت تعرف هذه النظرية

— نعم اذكر اني قرأت تلك الاعتراضات . اما حكاية الاعمى وهي أول ما أورده في برهانه ففيها نظر. فيلزم ان نعرف ما اذا كان الاعمى الذي سأله الطبيب يستعمل قوله (أحس الاشياء كأنها تلمس عيني) بالمعنى الذي نفهمه نحن ولا يغيب عنا انه يصعب عليه استعمال معاني الكلمات الدالة على وظائف العين وان كان يعرف ألفاظها . زد على ذلك ان العين يطرأ عليها بعد العملية شعوران جديدان لم تعهدهما من قبل في وقت واحد وهما الشعور بالبصر والشعور بملامسة الهواء لدخوله فيها لاول مرة

وبمقتضى هذا لا ينبغي التعويل على كلام الجريح الذى يستعمل لفظاً واحداً للدلالة على معنيين أو أكثر عقب العملية لانه حينئذ يلقى كلامه جزافاً . ولا يفوتك ان كثيراً من التجارب جاءت مناقضة لتجربتك التي ذكرت

فقد رؤي بين المولودين عمياً ألذين أجريت العمليات

على أعينهم من يمد يده من فوره بمجرد انتهاء العملية ليصيب شيئاً أمامه . فلو تراءى له الشيء ملامساً لعينه لما مد يده بعيداً عنه

هذا وقد برهن (كوفيه وشوفرويل) على أن أفراخ الدجاج بمجرد خروجها من البيض تستطيع ان تمشي وتتجنب الموانع التي تصادفها في طريقها . وترى الحبوب المبعثرة حولها فتلتقطها ولم تتمرن عيونها بعد على النظر . وبهذا يستدل على أن أبصارها تهديها الى البعد الثالث وهو العمق

بقي لدينا الاعتراض الاخير وعيبه ان القائل به لا يحسب حساباً للقوة الباصرة

ان بصرك بالشيء يتغير بانتقاله من اليمين الى اليسار في مستوى أفقي كما يتغير بقرب الشيء وبعده فيحصل من ذلك جهد عظيم لعضلات العين لتحدو بالبصر الى الارتسام على الشبكة واستيضاح المرئي بقدر ما يمكن من الوضوح

فلهذا المجهود العظيم الذي تبذله العين نحن مدينون ببروز ابعاد الحجم الثلاثة في الفراغ الطول والعرض والسمك»

وحينئذ كاد ابن خالي يقهقه ضحكاً اذ تبين له ان الشابين

وجما لا يفقهان ما أقول ولم يدركا أي تزعزع او خطل في ايراد هذه النظرية . بل كانا يصدقان كل ما يسمعان ويحبذانه دون أدنى معارضة . وكان ذلك داعياً لسروره لا سيما انه راى البون الشاسع بين الحال التي كانا عليها أول الليل وما صارا اليه بعد . وقد انقطعت كل رغبة لهما في المناقشة والضحك مني . ولكن ذلك لم يكن كافياً لمرادنا فتناولت قلم الرصاص وكتبت على المائدة قريباً من ابن خالي لفظة « كرم » دون ان يراها غيره وذهبت اغسل يداي . ولما عدت قال احد الشابين

— لا شك ان صديقك سالماً مجنون لانه ينكر الكرم

— لست من رأيك

فقال لي الشاب الآخر

— كيف ؟ أتوافق سالماً فيما يرى

— وماذا يعنيك ؟ اذا لم توافقه انت فبرهن اولا على خطائه قبل ان ترميه بالجنون . لماذا تسخرون برأي يبديه الغير اذا خالف آراءكم ما دمتم لا تستطيعون تفنيده ؟

— ليست المسالة في حاجة الى التفنيد فامرها ظاهر

— لله درك . افهمت ما قاله جيداً ؟ انه يقول لا وجود للكرم من حيث كونه لفظاً الا في اللغة والذهن لانه غير مادى (١) اي لايوجد كرم من غير كريم وهو مع ذلك لا يرى ان الكرم فضيلة يفتخر بها لأنها ناشئة في الغالب من حاجة في النفس كالأثرة وحب الشهرة او لفائدة ما . فاذا قام الجم الغفير من الباشاوات والموسرين بدفع اموال للجمعيات الخيرية ونحوها فذلك لكى يقال انهم كرام فيحبهم الناس ويثقون بخيريتهم ويكبرونهم ويلهجون بالثناء عليهم فاذا ظفروا بتلك الامنية وبلغ آذان الحكومة ما يقال عنهم فلا تلبث ان تدعوهم لما يخلو فيها من المناصب والرتب السامية التي تحتاج الى ذى ثقة وميول خيرية كرتبة المدير او الوزير لاعتقادها انهم يكونون ابعد الناس عن المحاباة والرشوة

فمثل هذا الكرم لايعد فضيلة على رأي سالم

— نعم قد لايعد مثل هذا الكرم فضيلة ولكن هل كل الكرام كمن ذكرت ؟

— لاأنكر عليك ان كل الكرام ليسوا كذلك . . .

«١» — تقدمت مناقشة هذه الفكرة فى الجزء الاول

— ما رأيك في رجل يمر ذات ليلة في طريق مظلم بامرأة تفترش التراب وحولها صبية يبكون من البرد وليس ثمة من يراه فى تلك اللحظة ولا شيء يمنعه ان يمر في طريقه الى غايته لأن المرأة نفسها لم تسأله احساناً وهو مع ذلك يخرج من جيبه بعض الدراهم فيعطيه لها . فهل هو يفعل ذلك من غير طيب خاطر ؟

— كلا ! اني اوافقك على انه يعطيها الدراهم مرتاحا معطائه ولم يقصد بذلك شهرة او احراز ثقة ولكن على اى شيء يدل عطاؤه؟ اتظن ان ذلك الرجل اذا مر بتلك المرأة وهى تضحك وتداعب بنيها أكان يعطيها شيئاً ؟ لا اخاله يجود لها بشيء لانه رآها تضحك على ان الضحك والبكاء لا يغيران شيئاً من حالها التعسة .

فاذا اعطاها ذلك الرجل شيئاً من الدراهم فلم يكن فعله بغير ما سبب ذلك لأنه رآها تبكي وتئن من ألم ماتجد فأثرت حالها في نفسه وآلمته ورثى اليها فهزت بذلك اريحية للعطاء الذي يعلم انه يخفف من آلامها فينقطع بذلك المه. ولولا ذلك لما اعطاها شيئاً فهو لا يعطي الا الفقراء الذين يؤلمه انينهم أو

يؤثر في نفسه تشويه منظرهم

فما نسميه كرماً ما هو في الحقيقة الا رياء منشؤه حب الظهور والعظمة وان ما نسميه كريماً يبغي بكرمه ثناء جزيلا يربو على أضعاف ما تجود به يداه أو ليدفع عن نفسه ما يتولاه من الجزع والألم لمنظر مؤثر أو أنين محزن

وبعد ذلك كله يوجد من يجرأ ان يسمي كل كرم فضيلة فكم من عيوب تقوم عليها الفضائل. وكم من فضيلة يخجل المرء من نسبتها اليه لو اطلع الناس على اسبابها

يلوح لي انك غير مقتنع بصحة هذا الرأي . فلك ان تذكر لي فضيلة من أمهات الفضائل تستحق ان نسميها كذلك كي نتناقش في أسبابها

الاخلاص ؟ هو ان تفتح فؤادك لصديق ليقرأ ما فيه وتوقفه على كل ما ينطوي عليه ضميرك ولكن هذا تعريف لا وجود لحقيقته الا في الكتب . وحقيقته الواقعة أي المتبادلة بين الاصدقاء عبارة عن اخفاء ما في الفؤاد اخفاء دقيقاً بحيث لا تم عليه الاسرة والعيون لاكتساب ثقة الغير

أم التواضع ؟ . دعني اضحك فالضحك جوابي في توضيح

تلك الفضيلة . ان تنحيك عن قبول الثناء والشكر ما هو منك الا رغبة في المزيد

أم الشجاعة ؟ . وما هي الا حب الفخار أو الخوف من العار او الرغبة في الاثراء او في رغد العيش . او الميل لاذلال الغير . فهذه كلها اسباب تقوم عليها الشجاعة

فكل عمل تراه يفخر به الناس ويسمونه فضائل أساسه الانانية لا غير . فاذا تظاهر الرجل بالفضيلة فلغرض مقصود وفائدة نفسية فالفضيلة تضيع في الفائدة النفسية كما يضيع النهر في البحر (١)

وبينما كنت اتكلم اذ حضر سالم لتناول العشاء على ما أظن . فاشرنا اليه فجاء ولم نلبث ان دخلنا في مناقشة أخرى غيرت مجرى الحديث . فسأل أحد الشابين سالماً قائلاً :

— متى تظن الحرب تنتهي يا سالم ؟

فاجابه سالم ومن طبعه الصراحة :

— انا يا عزيزي البك لست من هؤلاء المعتوهين الذين

---

(١) بعض الآراء المتقدمة مستنبط من حكم لطائفة من فلاسفة الفرنسيين وقد تداولها الفلاسفة في كل الامم من قديم الزمان

يرجمون بالغيب تنبوءاً بنهاية الحرب لان ذلك يتطلب قبل كل شيء الوقوف على الاحوال الداخلية والخارجية للأمم المتحاربة قبل الحرب واحوالها الحقيقية الآن . فأين أنا من معرفة ذلك والحكم عليه . ولقد رأينا أكبر القواد الحربيين الدارسين المسائل السياسية درساً دقيقاً المباشرين ميادين القتال يحجمون عن ابداء رأيهم في ذلك أو يقولون فيخطئون . فكيف تريد ان أجرأ انا او تجرأ انت على الخوض في هذا الموضوع او إدعاء الكفاءة لان نقفو ما ليس لنا به علم . من أين لنا الوقوف على العوامل التي تطرأ على قوى المتحاربين بغتة او نسبية . والحوادث التي تقع بانتظار او بدونه وبيننا وبينهم حجاب كثيف من جهل الحقائق وشاسع البحار والمدن والقفار . ان أكبر عيب في اخلاق الشباب المصري التعرض للحكم على ما يجهلون كل الجهل سفاهة وغروراً . فدعنا من التكلم فيما لا نعلم ولا يعنينا أمره ودع الامر لمن يهمهم من فضلك والا كان التصدي له من أحدنا دليلا على غباوته المتناهية»

كان هذا الجواب من سالم صدمة شديدة بالنسبة للشابين جعلهما يفضلان مناقشتي على مناقشته اذ كنت أتلطف

في معارضتها وأجاريها في مضمار جدلها دون ان أنسبها للغباوة صراحة حتى صارا ينظران اليّ نظرهما الى عالم ضليع بآداب المناقشة والمناظرة يثقان بكل ما اقول . ولو ادعيت ان الارض ثابتة او انها من ذوى الذكاء والفطنة لآمنا بقولي .

الجزء الثالث

مضى شهر على تلك الليلة التي أعدها محمد بك لاذ ليال الصفاء القلائل التي صادفتها في حياتي . ثم أصابني مرض الزمنى الفراش فجاء لعيادتي صديقي شريف صباح اليوم التالي لمرضى كما جاءت لعيادتي السيدة « بيرت » وهي معلمة عجوز قضت معظم حياتها فى تدريس آداب اللغة الفرنسية . فاضطررت لمقابلتهما في حجرة نومي . وكان من عادة شريف ممازحة تلك السيدة حتى يشرق محياها أنساً . ولقد بقيت فيه تلك الرعونة التي تشاهد عند معظم الاطفال فتراهم يقابلون الاشياء بالتهكم فهو يضحك من كل شيء يراه ويتهلل وجهه كلما قابل انساناً فيتلقاه بارتياح وترحيب كأنما يتلقى صديقاً عرفه من قديم . ولعمرى انه لرجل سعيد لا تفوته فرصة للتبسط والانشراح

وبعد هنيهة سألتنى السيدة « بيرت » قائلة :

— أين وصلت من الكتاب الذي شرعت في كتابته من مدة ؟

— الكتاب ؟ ؟ . . قد انقطعت عن مواصلة السير فيه منذ أيام وفترت عزيمتي وانصرفت عنه رغبتي

— لماذا ؟ ؟ . .

— خطر لي ان اكتب هذا الكتاب لمن قطعوا دور التعليم الابتدائي من التلاميذ مجتهداً ان أوضح بقدر المستطاع بعض نظريات فلسفية ينبغي أن يلمّ بها الشباب وقوى عندي ذلك الخاطر لما رأيت مدارسنا الوطنية خلواً منها . ولعلي نجحت في هذا العمل او كدت فان كل من حادثتهم في شأنه وأطلعتهم على ما كتب اظهروا ارتياحهم اليه ومشاركتهم في شعوري بالحاجة اليه وانه يفتح باباً جديداً للكاتبين . فلئن لم احسن التأليف في موضوعه فقد يكون عملي منبهاً لمن عساه ان يجيد الكتب في هذا الموضوع . على ان الامر لا يخلو من فائدة للطلبة يمرون عليها فيه وانا الآخر استفيد من آراء المنتقدين ولا أقل فائدة للطلبة من أنهم يتناقشون في ما يحتوي من النظريات التي قد لا تخطر لهم المناقشة فيها

— إذن لِمَ توقفت عن الكتابة ؟ ؟

— الحق اني لا اعرف لذلك سبباً قويا . وغاية الامر اني منذ أيام تحادثت في شأن الكتاب مع ابن عمى وهو ذلك الفتى الذي يحلق شعره و بلغك كثيراً عن ذكائه الحاد وحصوله على الشهادات صغيرها وكبيرها . ولقد خاب ظني اذ كنت أتوقع انه يجيد فهمه بسرعة وانه يوافق على ما فيه . فاذا كان مثله لم يصل الى ذلك بسهولة فكيف أطمع ان يدركه من دونه من التلاميذ ؟

من ذلك الحين استنتجت اني لم أحسن بيان ما اكتب فوقفت عن الكتابة . على اني ناقشته حين ذاك فى بعض النظريات التى اشتمل عليها حتى تيسر له فهمها فطفق يقدح فيها وياليته اكتفى بذلك بل جعل يشنع ايضاً على الفلاسفة العصريين ناسباً آراءهم للسخافة ولم أتمكن من اقناعه ولم يكن هو من جهة اخرى ممن يُناقشون ليفهموا . فكان يقاطعنى كلما حاولت اقناعه ويصيح قائلا : « يستحيل عليك ان تبرهن لي على انه ليس للانسان ارادة واننا لسنا احراراً في افعالنا نختار الطيب ونتجنب القبيح »

يقول ذلك باضطراب وحدة ويستمر فيكرر قوله :

« يستحيل عليك ان تقنعني اني لا أتخير اعمالي فاحبس نفسي بأرادتي عند حدتها عن عمل شيء او لساني عن كلمة سوء. واني غير قادر على كبح جماح النفس اذا شردت في هواها »

ولم يكن تهويشه ذلك ليذهب بصبري فقد كنت اجيبه

— « اذا حبست نفسك عن حدتها فذلك لان صوت الحكمة وصوت الرحمة كانا أقوى في خلدك من دافع الحدة فارغمك الاقويان على طاعتهما بينما أنت تظن أنك عصيت نفسك وفللت شباة حدتك . وعلى العموم كلما خالفت نفسك وهواك كان ذلك لوازع في ضميرك ظاناً انك حر في اعمالك . ان ارادتك مهما كانت ضعيفة او قوية فليس بيدك أمرها لانها تكونت على حسب الظروف التي أحاطت بك منذ نشأتك فارادة الانسان متوقفة دائماً على الاسباب المكونة لها بناء على نظرية (التقييد) Determinisme »

وما كدت انتهي من هذا الايضاح حتى صاح بحدته المعهودة ولهجته السريعة قائلا : « برهن برهن على ذلك »

— بأى شيء تريدين أن اجيبه ياسيدتي بعد كل ما قلت

له وما قرأه في كتابي ؟ وكيف يمكنني ان ألخص آراء الفلاسفة العصريين الذين طرقوا هذا الموضوع منذ قرن تقريباً نافين الارادة المطلقة عن الانسان ؟ . كيف يمكني تلخيص ذلك في كلمات قليلة كي اقنعه ؟ لا سيما وهو لم يقرأ شيئاً من مبادئ الفلسفة ليكون على استعداد لقبول امثال هذه النظرية

حدثتني نفسي ذات مرة ان أبين له نموذج العقل في اسيره وانه يشبه سير تلك المجالس الشورية (البرلمانات) حيث تجتمع الغرائز احزاباً تتداول ثم تقرر حكماً واحداً هو الارادة الاجتماعية لقوى الجسم الانساني كله وان الالفاظ التي وضعت الخ . . . . ولكني امسكت عن انفاذ ذلك اذ لا فائدة من محاولة اقناع من كان على شاكلته

من ذاك الحين شعرت بالسأم وخور العزيمة كأني كنت أحاول ما لا ينال . لم يبق امامي الا ان اكرر عليه نظرية « الدترمينزم » فقرة فقرة على نحو ما هي موضحة في الكتاب وهذا من العبث بلا ريب لانه قرأه ولم يجد فيه ما يقنع كما يقول .

كان يجادلني وهو يتمشى ذهاباً وجيئة في الحجرة كمن يذرع ارضاً بخطواته او كمن لم يطق صبراً على ألم سنه فى انتظار دوره بقاعة الاستراحة في دار طبيب الاسنان ثم حباني اخيراً بهذه العبارة

— اما ما بقى من كتابك فلا بأس به الا ما حاولت ايضاحه من جهة المسئولية فلا اوافقك عليه ولن اوافقك أبداً بل الاصوب ان تعترف معى بفساد هذه النظرية الساقطة فقد رايت كيف امكننى وان لم اطلع على عكسها ان ارغمك على التسليم معى بفسادها »

فما ظنك بهذا الانسان الذي لم يكتف بأن عدّني أحمق اذ اخذت على عاتقى شرح تلك النظرية بل اثنى يرجوني ألا أغفل عما عنده من حدة فى اثبات ذكائه وما له من القدرة في التهويش عليّ في المناظرة وان لم يدرس الموضوع ثم زاد فقال :

— لا شك أن اقوالك كلها مغالطات لا تستقيم وما ابخس الحياة لو صح ما تقول . إذن لزمنا ان ننكر استحقاق الجزاء على اعمالنا ولئن صح ذلك لحبطت الاعمال وكان

وقوعها آخر كل شيء . . . . فقلت

— كلا . بل يكون ذلك بدأ لامور جديدة . مثال ذلك اذا قلنا ان غرائزنا هي التي تسوقنا فعلينا نحن ان نرقى بالحسن الى الاحسن ونكبح جماح الرديء . فالفضائل اول ما تكون تكلفاً ثم بالتمرين والاستمرار تصبح غرائز متأصلة في النفس والخلق فكما اننا نقوي عضلاتنا الجسمية السقيمة بتمرينها على الحركة ومعالجتها بطرق خاصة فيمكننا ان ننمي غرائزنا بالعلم والتهذيب. وأي شيء احسن من ان نعالج الامراض العقلية كما نعالج الامراض الجسمانية فنشرع في فحصها لمعرفة اسبابها ونعتني بمداواتها

لماذا لا نفكر في ذلك مطلقاً ؟ كأن ليس شفاؤها وابقاء وبالها احرى بنا واولى من تعجيل العقاب لمن نسميه مجرماً ونسميه مريضاً مضراً . ألا تجد ان ذلك العلاج هو الضمانة الواقية والطريقة المثلى في تقويم النفوس من غير انتقام من الضعفاء . ان شل ذراع انسان فاصبح غير قادر على رفع يده والمدافعة عن نفسه حينما يتعدى عليه آخر . فهل معنى ذلك انه لا يرى الدفاع واجباً او انه لا يريده فكذلك

المصاب بمرض نفسي يرى طريقي الخير والشر ولا يمكنه ان يختار الانفع لضعفه ولو تبينه. ألم يكن ذلك حقاً ؟ نعم ولكني لا ادرى لماذا استمر في محاورتك مع انك قرأت كتابي. أعد قراءته ان شئت فانك تجد فيه لكل سؤال جواباً . . فقال :

— أنا ؟ معاذ الله فمن تظنني لاقرأ كتابك ثانية ؟

— اذن كلف خاطرك اقامة الدليل على انك حر وان ارادتك وحدها كافية لان تجعلك تفعل ما تشاء في اي وقت من غير ما سبب

— املزم انا بالبرهنة على ذلك ؟ وكل ما في الامر اني انتقد نظريتك واكرر لك القول انها في غاية السخافة وليس من الضروري ان أقول لك هذا وانا قادر على ان آتيك بنظرية مثلها او على ان اقارعتك برهاناً ببرهان فانه يمكنني القول بأن هذا الحذاء او ذلك لم يصنع جيداً وانه مضر بالقدم او غير مضر وانا غير قادر على عمل مثله ولا استطيع ان اقبض على ادوات صانع الاحذية فأريه ما كان يجب عليه عمله

— مبلغ جدلك انك تزعم ان هذه النظرية سخيفة واري

من اسئلتك انك لم تفهمها وتأبى ان تقرأ الكتاب ثانية او ان تبرهن على صحة ما تقول فتبين مواضع الضعف او السخافة فيما كتبت فما حيلتي فيك ؟ »

وهنا قاطعتني السيدة « بيرت » بعد ان لبثت مصغية لما قصصته عليها فقالت :

— انصح لك ان تتم كتابك وتنشره بين طبقة المتعلمين والطلبة من امثالك فلن تعدم من يفهمونه ويحلونه المحل اللائق به . ولو كان لك من كل مائة عشرة يحبذون عملك لحصلت على مبتغاك وذلك خير من ان يظل في حيز الخفاء

ثم ان كان ابن عمك لا يفهم ولا يريد ان يفهم نظرية فلسفية فلا ينبغي ان تتخذه ميزاناً لتقدير ما عزمت عليه ولا دليلا ان كل الناس على شاكلته .

لم أتشرف بعد بمعرفة هذا الشاب ولكني لا أتردد في تخطئتك اذ اعتبرته نموذج الذكاء لحصوله على بضع شهادات فالنجاح في الامتحانات لا يدل على نصيب الممتحن من الذكاء الفطري والبداهة وانما هو دليل على الصبر

لا غير(١) . وبعد ان سكتت برهة قالت

واني لاحسب نفسي من أقل الناس فهماً ولقد قرأت قسماً كبيراً من كتابك فكنت أجده واضحاً جلياً

فقلت لها :

— من العبث ان تتكلمي الآن عن هذا الكتاب طويلا

«١» تعتقد تلك السيدة ان العلم الذي يحصل بالصبر على الدرس والتمارين العملية شيء والذكاء الفطري شيء بد انها لاتفكر ان العلم يساعد على نمو الذكاء وتقويته . فترى ان كثيراً من المتعلمين ضعيفو الذكاء بالرغم مما حصلوا عليه من علم كما انها ترى كثيرا من غير المتعلمين والعصوص اذكياء للغاية . تعتقد تلك السيدة ايضاً ان الذكاء والتضلع في بعض العلوم لايؤهلان لفهم كل علم او لنقد ما يكتب فيه فاكبر قضائي مثلا غير قادر على انتقاد كتاب في الرياضيات او الطب وهي ترى ان الفلسفة علم مستقل عن علوم كثيرة كأدبيات اللغة ونحوها بالرغم من خلط بعض الشبان في هذا العصر نظرياتها بعلوم لاتتعلق بها ولانها تتوقف على دراسة علوم اولية ضرورية كالمبادئ لها وليس الغرض من ذلك ان المتعلم ايا كان لايفهم مايقرأ من كتب الفلسفة ولو سطحياً ويستفيد مما يمر به من نظرياتها . وانما الغرض انه لا يكون قادراً على نقدها او تفنيد شيء من دقائقها فهذا مستعص على غير من درس الفلسفة على قواعدها الخاصة ولو كابر المدعون

فقد احرقته بعد ان استولى الفتور على عزيمتي

— هذا جنون

— سبق السيف العذل . وانا اشكرك على عباراتك اللطيفة المشجعة . فما مضى فات وقد أكلت النار ما كتب وما عندي الآن الا ما كتبته في مذكرتي اليومية منذ منعنى المرض من الخروج . وساجتهد في تكوينه وترتيبه من الان لانشره حين الفرصة احتراماً لنصيحتك، وليكون أول خطوه لي في سبيل التأليف

فقالت السيدة :

— اشكرك . وانى واثقة من احترامك لوعدك هذا ايضاً وانك ستمضى في طريقك المرة غير متأثر بما كان من ابن عمك الذي لم يألف على ما يظهر التلطف فى المناقسة (١)

«١» ان ابن عمي هذا شاب لبق ولو عزبت مزاياه على بعضهم فقد يكون ذلك نتيجة حبه العزلة وكثرة انفراده . فقلما يعاشر الناس وهذا ما يجعله يفضلهم على ما ارى في نقط كثيرة . لم تفسد طباعه التقاليد العرفية ولم يألف الكذب الاجتماعي الذي يضار اليه من يعاشر الناس لمداراتهم . فهو صريح بمعنى الكلمة كمن فطر على السليقة البدوية . لا يخشى لومة لائم ليقول ما في ضميره في وجهه أيا كان من

ثم انصرفنا عن المحادثة في موضوع الكتاب الى حديث آخر لم يغلب الجد فيه لان شريفاً كان في اثنائه يوافينا بشيء

غير ان يعمد الى كناية او تعريض في كلامه . وكثيرا ما سمعته يقول لبعض السيدات « شكلك يا سيدتي قبيح كشكل الكلب الانجليزي (Bull Dog) » ايتها السيدة ان قولك هذا دليل على منتهى الغباوة » الخ

ابن عمي صريح يقول للناس ما يخطر بباله ويمنعنا خوف الانتقاد ومراعاة التقاليد مؤاخاة الصراحة . فكلنا يصافح الفصيحة من السيدات والغبية منهن والخارجة عن حد اللياقة ولا يجرأ ان يفاجئها بملاحظة لانه لم يألف الصراحة . هذه احدى مزايا ابن عمي وان عدها بعض اصدقائنا من رذائله

ان صراحته المتناهية تدعوه ليقول ما اعتدنا ان نجده غريباً بيد انه طبيعي في الحقيقة . فكثيراً ما يحادث الآكلين معه على المائدة في امر معدته وقابليتها للطعام والهضم واختلافها في ذلك احياناً وما ينشأ عن تأكولات من اسهال او امساك ومن ان رائحته لا تطاق الخ من الكلام الذي لا يخف على الآذان سماعه .

ان اصدقاءنا يسمونه (بالدباغ) كناية عن انه نهم ولانه كما يقولون يأكل في الافطار من الزبدة اكثر من الخبز وانه ياكل على العموم بطريقة تلفت الانظار . هذا كلام مبالغ فيه ولو ان ابن عمي يحب الزيدة حقيقة . انه شاب يسد على ما فيه من صفات حميدة واصحابنا يحسدونه حتى على الاكل ولو انهم يتظاهرون بخلاف ذلك لانه يمتاز

من طرفه الادبية تجلب لنا الضحك والسرور . ولم يطل الزمن حتى جاء وقت الظهر فودعاني بعد ان زودانى النصيحة لأعتنى

عهم بميزة ثمينة قد تبعد عن ادراكهم . ان اختصاصي (ارتست) Artiste نعم ارتست فى الاكل . ان الارتست رجل قد نمت وارتقت احدى حواسه فجعلته قادراً على ادراك الفروق الدقيقة التي يعجز عنها فهم الناس الا قليلا وجد فيه منذ نشأته استعداد خاص يؤهله للنبوغ فى عمل ما

فالمصور ارتست لانه رجل ارتقت حاسة نظره الى درجة تمكنه من ادراك التناسب بين الاشياء بدقة وبين الوانها فالموضع الذي ارى فيه اللون الاخضر مثلا يرى هو فيه عدداً أعظم من النقط الصغيرة التي كونته من الازرق والاصفر الخ

وكذا المغنى والمولع بالسماع (السميع) فكلاهما اختصاصي (ارتست) فى تميز الاصوات والنغمات حين امتزاجها فى توقيع لحن وسط عزف الآلات وادراك أي شذوذ دقيق يقع من صوت أو آلة الخ

فابن عمي شاب ارتقت عنده حاسة الذوق لدرجة تمكنه من ادراك الفروق الدقيقة بين الاطعمة فيعرف ما نقص وما زاد في تركيب اي لون او صنف من الاطعمة وما كان يلزم اضافته او تقليله ليكون الذ طعماً مما يكون قد قدم اليه ولعمري انه ما وصل الى ذلك الا بعد ان مرّن لسانه على تقدير الطعوم على تنوعها وتجشم عناء كبيراً فى سبيله

بصحتي والامتثال لما أشار به الطبيب

فهو يتلذذ بكل صنف بأمعان لا كما يأكل عامة الناس مما يوضع امامهم وان احسوا بشيء من النقص او الاتقان لا يدركون سببه بدقة . فهو بذلك « ارتست » في الاكل ممدوح على ميزته بالرغم مما يقول الاصدقاء فيه ولا فرق عندي بين من يمتاز بميزة في اللسان او الاذن او النظر او الصوت .

الجزء الرابع

فارقني المرض وشرعت صحتي تعود الي وسمح لي الطبيب بالخروج ثم جاءني محمود يدعوني للذهاب معه كي نتناول شاي المساء بفندق « الشاطئ الجميل » فأجبته وسرنا الى هناك ولم يكن الجو يومئذ زاهياً بل كان وجه السماء مكفهراً تغشاه هنا وهناك سحب نحاسية اللون ضاربة الى السواد . وبينما كان محمود يسرد لي ما ينوي عمله في عامه اذ أقبل علينا ثلاثة اصدقاء بينهم ابن عمي وسرعان ما سألونا

— ماذا تعملان هنا

— « نعمل ما جئتم من اجله » ثم صاح محمود بغلام الفندق ليحضر لهم ما يريدون من الشراب . واخذنا نتجاذب أطراف الحديث جذلين مسرورين وكل يجتهد ان يأتي بنكته مبتدعه ليضحك رفاقه الذين كانوا يقهقهون لكل ما يقال حتى التافه التفاهته ثم مال اليَّ احدهم وامر في اذني ما معناه :

— يظهر ان صاحبك عبد السميع اعتراه شيء من الجنون

— لا ؟ من انباك هذا ؟ لم ارَ عليه سيمى الجنون ؟

— يقال انه شرع يترجم احد كتب الفلسفة فاذا صح ذلك فهو الجنون بعينه

— الذي اعرفه ان عبد السميع ماهر في الترجمة . ولكن ما رأيك انت في الكتاب الذي سيترجمه ؟

— ليس بشيء

— هل قرأته ؟

— نعم قرأته ولم أجد فيه فائدة ولم أدرِ الغرض منه

— الان عرفت السبب .

دهشت والحق يقال مما استنتجه محدثي من ان الكتاب غير مفيد لانه لم يفهم الغرض منه وان عبد السميع مجنون لانه يترجم مثل هذا الكتاب . وانه هو العاقل لانه لا يشتغل ويكتفي بالحكم على الكتب ومترجميها . ولكني لم أجد بداً من موافقته لئلا يعدني مجنوناً كعبد السميع

ثم سأل ابن عمي عبد السميع عن الكتاب الذي عنى

بترجمته كما يسأل أحد الباشاوات المثرين فلاحاً أمياً عن خرافاته

ولم ارد الدخول فى سلك حديثهم حذرا من مشاغبة ابن عمى لان هذا ديدنه مع كل من لا يرى رأيه وكل من جاء برأي جديد بالنسبة له ويعد ذلك من المضحكات . لذا كان ينظر الى عبد السميع نظر استغراب ممزوجا بالشفقة كمن ينظر الى الطفل الصغير يتعرض لما لا يأتيه العاقل . ويخاطبه بعظمة فى كل ما يوجه اليه حتى في المواضيع التى لم يسبق له البحث فيها وبعد حديث طويل ختم كلامه بقوله

— اما الفكرة فلا بأس بها واما الترجمة فقد بقي علينا ان نعرف ما اذا كانت جيده ام لا ؟ ولقد خطر لأحمد قبلك خاطر اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة فاخذ يتسلى بتلخيص نظرية فلسفية وبعد ان برهنت له على فسادها تركها واظنه أحرق كتابه . اليس كذلك يا احمد ؟

— نعم قد كان ذلك

فقال عبد السميع مستغربا ناظراً لمن حوله وقد زاد عددهم بمجيء غيرهم من الشباب

— ماذا تقول ؟ ؟

فاجبته

— قضى الامر وكان ما سمعت فقد حرقت ما كتبته لاني لم اوفق لارضاء ابن عمي من جهة ولم أحسن بيان الموضوع من جهة اخرى كما يقول . ولكن ما الباعث على الكلام في ذلك الآن . دعونا منه . هذا الشاي ردىء فما قولكم فيه ؟ ؟

قلت ذلك لأغير مجرى الحديث ولكني حاولت عبثا فقد بهت جميع الحاضرين حين سمعوا اني اكتب في موضوع فلسفي بل عجبوا ان رأوا شابا منهم كانوا يعهدونه متعلما ذكيا رشيدا لدرجة ما يقول بقولهم و يلهوا لهوهم ثم يجرأ على الاشتغال بتأليف كتاب لا سيما في الفلسفة . لم تكن دهشتهم من ذلك لتهمني انما المهم اذ ذاك الا ادخل من جديد في جدال مع ابن عمي الذي يعرف مني واعرف منه اننا لا نتفق ابدا على رأي في اي موضوع فما تكلمنا في امر عائلي او وطني او بحث ادبي او اخلاقي او في مسائل الزواج والازياء الا ادى ذلك الى مناقشات عقيمة طالما انتهت بالنفور والمخاصمة . وقد كان ما خشيته . فانه لم يعبأ بحسمي الحديث بل اخذ يفيض

عليهم شرح موضوع الكتاب كما شاء مسخفا لادلته ومع ان مئات الردود على ما زعم كانت ماثلة امامي لم ارَ فائدة من سردها فان بعض الحاضرين سمعوا الكثير منها والبعض يجهل الموضوع . فزاده سكوتي ابتهاجا وتشجعا وبعد قليل سأله احدهم

— ما ذلك المذهب الذي شغلكم الجدل فيه من مدة . . . مذهب التقييد ؟

لم يخطر لي من قبل اني ساتردد يوماً ما فى الاجابة على مثل هذا السؤال ولكن ميلي الى الكلام فيه وقتئذٍ تحوّل سأماً وضجراً . فاجاب ابن عمي وهو يضحك

— سل احمد ينبئك

فنظروا اليّ جميعاً والتبسم يعلو شفاههم فاجبتهم

— اصحاب هذا المذهب يعتقدون ان اعمالنا واقوالنا موقوفة على مؤثرات تعمل في انفسنا وتسيبها بالرغم منا فلا نقوي على تحويل نتائج المؤثرات الطبيعية او ايقافها . (او كما يقولون هى رد فعل لتلك المؤثرات لا يمكن الانسان ان يتقيها ما وجدت المؤثرات)

ذلك ان قوى المؤثرات تجتمع وتمتزج فتكون قوة نهائية هي ما نقوله او نعمله . اما وجداننا فلا عمل له الا مشاهدة سير المؤثرات ونتائجها فلا يسيرها ولا يهديها . فاذا فحصت اي حركه من حركاتك كأن تقبض على شيء بيدك او تسعى نحو غرض تطلبه فانما انت في ذلك تطيع جملة دواعي تحملك على عمله لم تكن لك بد في ايجادها حالا . ففي الوقت الذي تظن انك عزمت فيه على امر بمحض ارادتك تكون تلك البواعث الداخلية بواعث المؤثرات قد تبادلت الاراء في ضميرك وقررت بعد المداولة أمراً هو ما تظن انك قررته بمحض ارادتك وليس لك من الارادة الا موهومها

فقال احد الحاضرين

— ان هذا المذهب الذي تسميه الدترمينزم الآن ما هو الا مذهب القدرية القديم عند العرب قد أفرغ في قالب جديد يناسب الوقت الحاضر . (١)

(١) لم نعر هذا الاعتراض ادنى التفات لأن محصل مذهب القدرية مشهور لا يعزب عن مطالع ومبحثه ديني محض وهو مباين لمذهب الدترمينزم الذي هو عبارة عن نظرية علمية لا علاقة لها بالدين كما تقدم في صدر هذا الجزء

فصاح ابن عمي قائلا

— أرأيتم فساد دعواه؟ وان كلاً منا في استطاعته ان يبرهن على فسادها. واقرب ما اثبت به اني مطلق الحرية والتصرف في ان اقوم الآن فآخذ عصاي وطربوشي واذهب الى المدينة فاطوف ارجاءها لا لشيء سوى ان ذلك يعجبني

فقلت له

— انا لا استطيع اقناعك ما دمت تسائلني ثم تقطع حديثي كلما هممت ان اجيبك . فالاحسن ان شئت ان نغير مجرى الحديث

— لماذا ؟

— لان ذلك خير لنا . ولكن من جهة أخرى ارى الفرصة سانحة لان نقرر مبدأ لا نخالفه بعد وان ننظف الجرح قبل ان يلتئم على القذى . اننا لم نتفق يوماً في رأي ولم تنته بيننا مجادلة الى منتوج فلندع الجدل جانباً فنتجنب سوء التفاهم والك عليَّ أن أبذل كل ما استطيع في هذا السبيل فلا أتعرض لرأي تبديه . ويقنعني منك مثل هذا الوعد

ان المذاهب العلمية الحديثة عرضة للتنقيب والتغيير لانها

مؤسسة على فروض ما زالت تحت رحمة اكتشاف جديد يدحضها فلذا ترى من يتشبث بمذهب من تلك المذاهب لا يجزم بصحته البتة خوفا من ان يعرض نفسه للسخرية حينما ينقض هذا المذهب. اما انت فترى ان اراءك قائمة على اساس متين لا تقبل الجدل واليك مثلا ما تردف به دعاويك كلما ابديت رأيا او اوضحت مذهباً او طرأ لك اظهار فكرة فلا تفتأ تكرر قولك : العقل الراجح . او الرأى الصواب . او ان تقول : يكفى المرء ان يكون له شيء من الذكاء ليعتقد كذا . .

انك احتكرت كل شيء راجح وامتزت من بين كل الناس بصواب الرأى ولا اقول ذلك مازحا فان اعتقادك بارجحية كل ما هو لك مطلق لدرجة لا تسمح لك بالتروى والتمحيص لان التروى هو سؤالك نفسك ومناقشتها وانت لا تشك في الثقة بها . فآراؤك وافكارك تظهر لك دائما كاملة مهذبة لذلك تورد ها بكل ثقة وطمأنينة دون ان يخطر على بالك ان هناك من يخالفونك في الرأى

مالك تترك الحقيقة ـ حقيقتك ـ تسقط من فمك غير حاسب حسابا أنها ربما سقطت على أناس فاصابتهم بجرح ؟

أما لغيرك احساس يوله ان يجرح ؟ . اذا وطئت رجلك قدم آخر في طريقك فقد تؤلمه كثيراً وان لم يؤاخذك لعلمه انك لم تسئه قصداً أو انك تجهل موضع قدمه . فرجائي اليك ان تلاحظ قدمي كي لا تطأها وسألاحظ ذلك نحوك

ان هذه النظرية ليست لي وتعرضي لشرحها لا يستلزم قولي بها وما نقلي اياها بموجب اعتناق مذهب اربابها ولكن ذلك ليس بمانعي من احترام آراء من عنوا بمباحثها وتعبوا في تكوينها

قال لي احدهم

— لا ينبغي لك ان تستاء من المناقشة أيًا كان اسلوبها فانما نناقشك كيما يتيسر لنا ان نفهم النظرية جيداً

— لست مستاء وانما أفضل سد باب المناقشة في هذا الموضوع مع ابن عمي خاصة للاسباب التي بينتها قبل

ثم خضنا في مواضيع شتى حول ما يقع في مجالس اللهو الى ان قال لي احدهم

— الا تستمر في شرح نظرية الحرية ؟

— كلا لنتركها الآن جانبا

ثم سأل احدهم صديقنا — ج

— من تلك السيدة التي كنت سائراً معها على شاطىء لبحر امس ؟

فاجابه ج

— هي سيدة سويسرية عرفتها من زمن

— ليس لك ذوق سليم فانها ليست بحسناء

— شيء غريب . وما علىّ اذا لم تكن حسناء . ان السيدة لتي رأيتها اديبة لدرجة يندر وصول كثير من السيدات بل من الرجال اليها ولقد امضيت وقتاً البارحة في صحبتها وسمعت حديثها فأبت بفوائد جمة

— هذا لا يكفي

— قد لا يكفي مثلك اما انا فاؤكد لك ان ذلك يكفيني السيدة المهذبة المتعلمة متى كانت طيبة الحديث لا يمل لانسان ولا يضجر في حضرتها وان لم تكن ذات حظ من لجمال الذاتي : ولا احتاج لدى كل مسامرة ادبية ان احادث روساً قد استكملت زينتها . على ان تلك السيدة لم كن دميمة

— هذا غير صحيح فلا تحاول ان تفهمنا انك كنت مع سيدة جميلة

— ويحكم لا أقول لكم ذلك تفاخراً وأكرر القول بأن جمالها لا يهمني فالمصادفة وحدها هي التي جمعتنا ولو كانت تلك السيدة دميمة لما غيّر ذلك شيئاً من قصدي وكنت أمكث معها كما فعلت بالامس قانعاً منها بما أوتيت من سماحة الخلق وعذوبة الحديث فيما ترويه من أدبها الجم فضلا عن أن لي صديقات كثيرات أحرص على صداقتهن ولا حظ لهن من الجمال اذ لا دخل للصداقة في ذلك

— أسلم لك انها شهية الحديث ولها من المواهب الشريفة ما ذكرت ولكني لا أسلم لك انها حسناء

— لست على رأيك يا أخي

— هذا دليل على فساد ذوقك لاننا كلنا رأيناها واجمعنا على دمامتها

— وهل هذا دليل على صحة ما تقولون ؟ لعمر الحق لو كنت لا أعرف تلك السيدة لكفاني حكمكم عليها بالدمامة ان أعرف انها جميلة لتمكني من استقصاء اطباعكم

وما الطف حكمكم على ذوق بالفساد لاني لم اكن على رأيكم . يا عزيزي انك اطلقت لنفسك العنان في معارضتي هذا المساء في معارضتي ولعل ذلك لشدة شغفك بالمناقشة والشتم

كنت اشك فيما عزاه اليك احمد مما دعاه الى حسم المناقشة بينك وبينه في نظرية التقييد والان صرت على يقين من صحة قوله وصواب خطته . الا تدرى ان الالوان والاذواق غير قابلة للمناقشة والجدل فانا اميل الى نوع من الفاكهة كالجوافة مثلا وانت لا تميل اليها وتعافها نفسك فهل يمكننا ان نتباحث في ميلى اليها و بغضك اياها لنعرف اينا مصيب ان الذوق فى ادراك معنى الجمال يختلف في الاشخاص باختلاف البيئات والتربية ويختلف فى البيئة الواحدة باختلاف الميول والعواطف والنزعات النفسية وما ألفه المرء من مبدإ نشأته . سل زنجياً أين يجد الجمال في امرأة يحبيك : في زنجية لونها اسود فاحم دسمة الآهاب ذات عينين ضيقتين وشفتين عظيمتين ضخمة الحصر والذراعين والرجلين الخ . وسل هذا السؤال يبانياً او صينياً يحبيك امرأة قصيرة خفيفة اللحم صغيرة القدم ذات عينين ضيقتين منحرفتين قد شدتا الى فوديها

فاذا كنت ترى الاذواق والالوان قابلة للمناقشة فناقش ما شئت . برهن لي اذن ان كلا من الزنجي والياباني والصيني وغيرهم من مختلف الاجناس مخطيء في ادراك معنى الجمال بالنسبة لشخصه ولما يلائم ذوقه . لا أخال لديك برهانا على خطأهم اكثر من ان ذوقهم يخالف ذوقك ورأيهم لا يتفق مع رأيك حيث تجد الجمال .

— مالي وهؤلاء ؟ لا داعي للفلسفة في كل شيء . اني اقول لك باختصار ان تلك السيدة التي رأيتك معها بالامس قبيحة الشكل

— الم تكن مناقشتك هذه محض عناد ؟ والا فماذا وجدت قبيحا في تلك السيدة وانت لم تراها الا حين مررت بنا ؟

— أؤكد لك اني رأيتها لدرجة كافية للحكم على ملامحها ولم ارَ فيها حسنا

— وا رحمتاه عليكم ايها البسطاء . ألا تدرون معنى لمجالسة السيدات غير الحب والمغازلة . ام تظنون الاجمال ألاّ في أنيكم البادنات المتفقئات الناصعات البياض الحمر الخدود اللاتي كانهن صور من الشمع او الخشب قد طليت بالابيض والاحمر

وكسيت بالحرير الزاهي الالوان ؟ فاذا رأيتم احداهن مثلتم امام هيكلها الضخم مبهوتين قاصرين عليها معنى الحب وروائع الجمال . ام تريدون الا يتسلطن حب على قلب الا اذا كان لمن تحبون ولمن ترونه جميلا فلا يكون لأمريء ان يحب غيره ؟ طالله انكم لواهمون مختولون . والحب اعمى كما يقولون ينفذ سلطانه الى القلب من غير ان يستأذن احداً وهذا ما جعلك لا ترى الجمال الا فيما اعماك حبه . على انه ان كان للمرء ان يحب هاته او تلك فليس له ان يستقبح من كان جميلا ... وان استقبحه فليس جحوده الجمال بضائر الجميل ولا مقلل من قيمته والجميل يظل جميلا رغم انف المكابرين وان لم يجد من يعرفه

— انك تريد من هذه المرافعة الطويلة تفهيمنا انك تفردت من بيننا بسلامة الذوق لاستحسانك تلك السيدة وحدك

— كلا لم اقصد ذلك ولم اكن لأدعي التفرد بسلامة الذوق ولكن لأبين ان الانسان قد يخونه النظر كما انه قد يخطىء الرأي وان الرجوع عن الخطاء اولى من الاستمرار فيه . سأقص عليكم قصة اوضح فيها كيف تبين لي اني كنت مخطئاً يوماً ما فاسمعوا : منذ اربع سنين كنت في سويسرا وهناك تعرفت

بشاب نقاش حسن المعاشرة وبعد اسبوع من معرفتي اياه اخبرني انه سيضطر قريباً ان يبارح سويسرا لأنه مكلف من قبل احد كبار الاغنياء بنقش تمثال من مرمر يمثل النصف الأعلى من سيدة حسناء ليضعه حلية في مكتبة. فسألته لماذا لا تصنعه هنا؟ فقال اني غير قادر على العثور في هذا البلد بحسناء تسمح ان تكون نموذجا انقل عنه صورة التمثال فقلت له. يمكنني ان أقدمك الى سيدة بارعة الجمال اعرفها هنا تقبل ان تكون نموذجاً لتمثالك المطلوب (١) فرضي النقاش بذلك ولما كان الغد قدمته الى تلك السيدة بعد استئذانها فسر مروراً عظيماً وظن أنه ظفر بضالته المنشودة وانثنى عزمه عن السفر حينما صرحت له بقبولها ان يتخذ عن صورتها تمثالا. وبالضرورة لم أشر عليه الا وانا متصور ان تلك السيدة غاية في الجمال

وبعد ذلك باسبوع قابلت صديقي النقاش فألفيته غير منشرح وانه أزمع السفر فسألته: لماذا؟ ألم تسمح لك السيدة

(١) ان راوي هذه القصة في مناقشته هو الشاب ج وهو مسيحي ولا يستقبح في عوائدهم وقوع مثلها ولا روايته

بنقل تمثالك عنها بعد ؟ فقال :

— بلى انها لم ترجع في وعدها ولكني وجدتها غير جميلة بعد ان دققت النظر في ملامحها . ولقد أخطأ نظري اذ ظننتها لأول وهلة في منتهى الجمال . والذي غرر بي في أول الامر لون جلدها الرقيق الابيض المشرّب بالحمرة وميض عينيها ولون شعرها الباهر وخفة روحها . فقلت له : اذن فاى شيء لا يعجبك فيها . فقال : الذي لا يعجبني منها تقاطيع وجهها التي تظهر قبيحة في النقش على المرمر ولا اظنك تجهل ان التمثال الذي ينقل عن ملامح انسان غير متناسب اعضاء الوجه الى درجة تبلغ حد الجمال لا يكون جميلا لان الالوان وبريق البصر والشعر اللماع التي تزين الانسان الحي لا توجد في الحجر الجامد وهذه السيدة اذا جردت من هذه الاشياء لا يبقى للجمال اثر فيها لان ارتفاع انفها ودقتها وبروز وجنتيها وغور عينيها كل ذلك لا يظهر للعين الا بالتأمل والاستقصاء لاحظ ذلك بنفسك ان شئت عند ما تراه بل دقق النظر في ملامح اية سيدة تحسبها جميلة فتظهر لك عيوب كثيرة كانت تخفى عليك . اني ابحث عن الجمال الذاتي في وجه متناسب

الاعضاء لا يستمد بهجته من عين ولا لون ولا من قوة الحياة وبعبارة أخرى ابحث عن سيدة جميلة بالمعنى الحقيقي لا سيدة زاهية اللون ناعمة الاهاب خفيفة الروح ولا اجد ذلك متوفرا في هذه وان تبرعت ان انقل التمثال عنها فلا مندوحة لي عن السفر حتى اجد ضالتي »

زاد دهشتي عندما استمر النقاش يشرح الجمال فقال :

انا معشر ارباب الفنون الجميلة اسنا كباقي الناس في تقدير الجمال و نقد الحسان فالسيدة ذات الجلد الرقيق النضر يفتتن بها غيرنا وان وجد فيها بجانب ذلك بعض العيوب . اما نحن فنعتبر ذلك امراً ثانوياً بالنسبة لمعنى الجمال ولا يهمنا قبل كل شيء الا حسن الشكل والهندام وتناسب الاعضاء فوضع نظارنا شكل العين والفم والانف والوجنتين والذقن والرقبه وصغر القدم ودقة الكعبين الى آخره يلفت نظرنا ذلك اكثر مما يلفت اللون وبهاء الجلد سوانا فانهما قد يزولان لمرض بسيط . ورب حسناء بستار ألوانها وتصنع الرشاقة لجسمها تذهب نضارتها وتبدو قبيحة اذا اعتل مزاجها ولو قليلا . وعليه ترى ان السيدة الكاملة الجمال نادرة الوجود »

وما زال النقاش في حديثه عن الجمال مبرهناً لي ان الرجل كثيراً ما يخطئ في حكمه على جمال النساء. ثم اردف قائلا: ان أمهر صانع لا يجزم بجمال سيدة الا بعد امعان النظر وترديده ولا يزال في شك من صدق نظره مخافة ان يخدعه رونقها الظاهر وما تبديه من التبرج» ومن ثمة أخذت عنه درساً وافياً في فهم الجمال

فاذا كان امهر مصور لا يجزم بجمال ذات او بنفيه عنها الا بعد طول النظر فكيف بكم تحكمون بالقبح على من لم تروها الا لمحاً. بيدَ أكرر القول ان جمال تلك السيدة أمر لا يهمني البتة. وما استفزني للذهاب اليها الا التشوق لسماع حديثها والاستفادة من ادبها

فقال له احدهم:

— اكثر ما رويت عن النقاش صحيح

وقال آخر:

— الحق ان الجمال كيت كيت .... الخ

معيداً ما تضمنه حديث ج. وهكذا وافق الباقون على ما قاله في الجمال الا مناظره فقال له ج:

— يعز علي ان يتحول عنك رفقاؤك وتنفرد بالمعارضة على خلاف عادتك . والمعهود فيك ان تكون على رأيك دائماً وانت على رأي الناس

— انا لم تكن تلك عادتي . . . ولا يهمني تحويلهم الى رأيك ولا تمسكك برأيك في الجمال وفي استطاعتي ان استمر في مناقشتك الى الغد وانت لا تقدر على اقناعي برأيك

— اما هذا فامر محقق

obeikandl.com

الجزء الخامس

محاورات في مسائل متنوعة

بين ا و ب

﴿ الصراحة ﴾

ا — قلت امس لحسن بك ان الرواية التي مثلتها امامكم الصور المتحركة جميلة

ب — عفواً يا سيدي . هو الذي قال ذلك

ا — ولكنك وافقته عليه

ب — نعم

ا — قلت اليوم امامي لمحمد ان تلك الرواية مملة ثقيلة على النفس

ب — عفواً هو الذي قال ذلك

ا — ولكنك وافقته

ب — نعم وافقته

ا — ما معنى ذلك ؟ أتستحسن تلك الرواية أم لا ؟

ب — هذا شيء يعنيني

ا — هذا صحيح ولكني اعجب من تناقض يبدو منك ولم ادر له سببا لما اعهده من صراحتك وصدقك وانك تجاهر بما يعن لك مهما كان مخالفا لغيرك فما الذي غير طبعك وصرفك عن عادتك اذ من المحال ان تجد الرواية جميلة وعملة ثقيلة على النفس في آن واحد ؟ فالطربوش اما على رأسك واما ليس عليها

ب — ثم ؟ . . .

ا — اريد ان اعرف سبب تناقضك

ب — ما الذي كان يجب علي عمله ؟

ا — ان تبدي رأيك الخاص بصراحة وتجاهر بما وجدت عليه الرواية

ب — لم يطلبا مني ابداء رأيي فيها

ا — اعني ان الواجب كان يقضي عليك بموافقة احدهما فقط لا ان تكون على رأيين متناقضين في وقت واحد

ب — ما الفائدة التي كانت تنتج من اتباعي ما تراه واجباً ؟ وهل اعتقادي الخاص في الرواية كان يغير من نظر محمد او حسن اليها ؟ أتعرف سبب رؤية احدهما لها جميلة والآخر ثقيلة

ا — لا

ب — انا كذلك اجهل السبب الخاص ولكن لا بد لذلك من اسباب كثيرة . فما يدريتا ان المناظر التي تتكون منها الرواية تشبه ولا شك مناظر قضى فيها احدهما اياما لذيذة وربما كان بطل الرواية يجتمع معه في بعض صفات او انه يشبه صديقاً له وهذا ما كان يحمله ان يجد الممثل خفيف الروح مسلياً . ويمكن ان بعض وقائع الرواية تشبه بعض اطوار مرت به او بعض مواقف صادفته في معترك الحياة وهذا وحده كاف لان يرى تلك الرواية جميلة ولا يخفى ان مثل هذه الاسباب كثيراً ما تتسلط علينا وتجعلنا نحكم على الاشياء بالحسن دون ان نشعر . فلو جاهدت ان اثبت له انه مخطىء في حكمه وان مضمون الرواية التي اعجبته سخيف وان البطلة لم تجد القيام بدورها . . . لو جاهدت ان اثبت له ذلك لكنت اغبي الناس واثقلهم على روحه . ان التي رأيت منها ذلك قد تكون

راقته حركاتها وبسماتها لانها تشبه ذات قرابة منه او صلة كما ان الذي يجد الرواية سخيفة مملة لا بد ان تكون لديه اسباب كثيرة حملته على استقباحها ومن العبث معارضته ليتحول عن رأيه ولو كنت مكانه لرأيتها بعينه . ومن الجائز ان محمداً لم يستريح في النوم الليلة السابقة على مشاهدته تمثيل الرواية او انه لم يهضم جيداً ما أكل يومئذ فأثر ذلك على مجموعه العصبي وجعله عبوسا لا يرضيه شيء يميل ان يرى الاشياء رديئة اكثر منها حسنة

ا — كأنك تقول انه لا يجب علينا ان نعارض احداً في ما يرى اذ توجد اسباباً كثيرة تحمل المرء على مخالفة سواه

ب : — هذا مما لا ريب فيه ولذا تراني لم أجاهد في تخطئة حكم محمد او حسن على الرواية . اسمع ما وقع من شاعر بلجيكي مع امرأة احد الوزراء وقد كانت تدعي الشعر والادب

نشر احد الكتاب هناك رواية صغيرة لم تعجب احداً من الكاتبين الضليعين في اللغة فاول مرة قابلت السيدة هذا الشاعر بعد انتشار الرواية قالت له . « هل قرأت الكتاب الجديد لفلان الحق انه جميل جميل جداً . ان هذا الكاتب الصغير ذكي

ولا شك » فأجابها الشاعر باحتشام دون ان يبدو عليه ما يشعر بالسخرية . « ان هذا الكاتب الشاب ليس بذكي فقط بل هو نابغة ايتها السيدة لا يعرف الناس قيمته الآن ومن المؤكد انك قرأته بنفسك ورأيت كيف يصف الحياة . ان ضعف الاسلوب وقلة الافكار الناضجة والتعابير الركيكة التي تملأ الحياة قد جمعها في كتابه . هذا هو الكاتب الحق لانه وقف على الحياة واحس ما فيها فوصفها وصفاً حقيقياً ولم يملأها بالالفاظ الجزلة والحكم . فاظهر بذلك قوة الملاحظة التي ينبغي ان تكون للكاتب . ان الحياة كما تعرفين أيتها السيدة ليست مملوءة بالافكار المتينة والعبارات الراقية بل هي خالية عن كل ذلك مفعمة بالسخيف منها والضعيف . فهو من هذه الوجهة قد أصاب هدفه ولا شك . . . الخ . »

سر هذا الحديث امرأة الوزير سروراً لا مزيد عليه . أما جميع الحاضرين من الكتاب فدهشوا حين سمعوه اصدوره من شاعر عظيم ولكنهم سرعان ما أدركوا أنه يضحك من السيدة أمامها وهي لا تشعر بشيء من ضحكه . لم يشأ هذا الشاعر مناقضة السيدة لعلمه ان معلوماتها التي سمحت لها

باستحسان تلك الرواية لا تصل بها الى ادراك ما حوته من العيوب وان مداراته لرأيها لم ترفع من قيمة الرواية

ا — أو تقصد ان تضحك كالشاعر من حسن ومحمد ؟

ب — لا . . لانهم ليسوا في موقف السيدة ولكني ظننت فقط انه من العبث مناقضة احدهما لانه ربما يكون هو المصيب

ا — انك يا عزيزي فيلسوف

ب — ياليتني فيلسوف . انى لم أرزق جرأة لاتجاسر ان أفاجيء الناس بما يكونون عليه من رذيلة او نقص . أتباعد عن المناقشات خوفاً من ان يعدّني الجهلاء جاهلا والعلماء سفيهاً . فهل تسمي مثلي فيلسوفاً . يا ليتني فيلسوف يملك جرأة « ديوجين » اذ زاره الاسكندر الاكبر المقدوني وسأله ماذا يريد فأجابه : لا أريد منك اكثر من ان تذهب من امامي فانك حجبت عني أشعة الشمس .

المحرَّم

او الفاكهة المحرَّمة

ا و ن : صديقان تأكدت الثقة بينهما وارتفعت الكلفة فلا يكتم احدهما عن الآخر سراً ولا يخفي عنه عورة كلما اقتضت الحال مكاشفته بأمر

مضت عليهما فترة من المقابلة ثم جمعتهم المصادفة على غرة فقال

ا — ارجو يا عزيزي ان تكون في هناء مستمر مع زوجك

ن — نعم ! . . ولكني . . .

ا — ما سبب ذلك ؟

ن — لا ادري لماذا اصبحت لا احبها كما كنت اول عهدي بزواجها

ا — هذا عارض وقتي وعما قريب تزداد المحبة بينكما حتى تربو عما كنتم عليه في جدة الزواج . وماذا تفعل طول النهار ؟

ب — اذهب الى بيت خليلتي

ا — ماذا تقول ؟ ألك خليلة غير زوجك أم أصابك دخل في عقلك حتى ما تبالي ان تصرح بمثل هذا الادعاء ؟

ب — لِمَ لا تكون لي خليلة وقد اصبحت من حب زوجي في فتور على اني لم اكاشف بهذا الامر غيرك . ان زوجي هنيئة فهي تحبني وتظن اني احبها فاردت ان أكون هنيئاً مثلها

ا — فقالت امرأة ما قابلتها ذات يوم

ب — نعم كان ذلك

ا — هل تحبها ؟

ب — كثيراً

ا — وهل هي تحبك

ب — هذا شيء اجهله ولكنه لا يمنعني من ان اكون سعيداً

ا — كم لبثت في هذا التلبث

ب — من سنة ونصف

ا — أبعد ستة شهور صرت لا تحب زوجك التي كنت تحبها جنوناً واصبحت قادراً على حب تلك التي لا تثق بحبها لك سنة ونصفاً من غير انقطاع ؟

ب — هذا هو الواقع

ا — أنا لا اشك ان زوجك أجمل واذكى واكثر تودداً من تلك المرأة التي لا بد ان تكون ساقطة غبية دميمة ككل بغي تقبل ان تعاشر انساناً في مقابل قليل من المال . ولو كانت جميلة لما انقطعت اليك عمن هو أغنى منك ممن لا يبالون بارتكاب المحرم .

فهل لاغتباطك بعملك هذا من وجه معقول ؟

ب — هذا هو الحاصل ولا تظن ان ذلك بارادتي ثم لا تنس ان زوجي زوجي اما الاخرى فهي امرأة اجنبية

ا — لكنها تصير بعملك هذا كزوج ثانية غير ان الدين والاخلاق تحلل لك الاولى وتحرم عليك الثانية

ب — هذا التحريم هو الذي يجعلني احبها « وحب شيء الى الانسان ما منعا » فهل انت تغريني بقولك هذا حلال وهذا حرام كي اتزوجها او اترك معاشرتها ؟ ثق اني احبها كذلك ما دامت امرأة اجنبية واني على يقين انها تصبح لا قيمة لها عندي لو تزوجتها . فمالك لا تدعني أعيش هنيئاً ؟ فهي كالفاكهة المحرمة على المريض يشتهيها ما دامت محرمة .

ا — هذه افكار صبيانية وتعللك بها وصمة لا يقبلها من كان مثلك خلقاً وتربية

ب — لا تقل ذلك فلو كنت تحبها مثلي وتشعر بهناء كالذي انا فيه لما عددته فعلا صبيانياً ولا وصمة مخجلة

ا — هذا ما ستره الحب عنك ولولا وجودك في حالة غير طبيعية لما شككت في انه عمل صبياني مخجل خصوصاً لمن كان مثلك حديث عهد بالزواج

ب — لِمَ ذلك ؟

ا — ان تمثيلك بالفاكهة المحرمة ركيك سخيف واسمح منه استئناسك بهذه العبارة المبتذلة « وحب شيء الى الانسان ما منعا »

ب — لا اظنك تدعي فساد ذلك . وانك لتعرف مقدار شغفك بفاكهة يحرمها عليك طبيبك وانت مريض ألا تشتهيها بنوع خاص ؟

ا — ثم ؟ . . .

ب — فلو لم يحرمها عليك الطبيب فربما كانت لا تخطر لك ببال

ا — ثم ؟ . . .

ب — يستنتج من ذلك ان المريض يشتهي الصنف الذي يحرم الطبيب عليه اكله بنوع خاص وبعبارة اخرى يشتهي الفاكهة المحرمة وهذا لا ريب فيه

ا — جهلك هو الذي لا ريب فيه

ب — ولم ذلك ؟

ا — لانك لا تدري لماذا يكون المحرم احب الاشياء الى الانسان ولماذا تكون الفاكهة المحرمة محببة الى المريض ثم انت تتخذ خليلة وتلهو عن امرأتك لا لشيء الا انك سمعت ان الناس يقولون ان المحرم اشهى الاشياء

ب — هل تدعي انت خلاف ذلك ؟

ا — مهلا ! دعني اتكلم . منذ قريب مرضت بمعدتي وقبل المرض مضى عليّ سنة لم آكل الخوخ فيها . فذهبت الى طبيب حرم عليّ أكل اصناف كثيرة منها الخوخ وشدد في تحريم الاخير عليّ فمن ذلك الحين اصبحت اشتهي أكل الخوخ جد الاشتياق مع انه لم يخطر لي على قلب ابان السنة المتقدمة على المرض .

ب — اذن جربت انت نفسك صحة ما اقول

ا — مهلا . دعني أتمم . اتدري ما السبب في ان نفسي اشتهت الخوخ ؟

ب — لانه اصبح الفاكهة المحرمة

ا — كلا لانه حرم عليَّ شرب اللبن واكل البيض واغلب الفواكه ولم يحدث ذلك في نفسي ادنى تأثير

ب — ما السبب اذن ؟

ا — حينما عدد لي الطبيب الاصناف التي لا يسمح لي باكلها ألفت نظري لفظ خوخ وخرجت من عنده افكر في الذي احبه والذي لم اكله منذ سنة ولكنه لم يجذبني كثيراً في ذلك اليوم . فكرت في الخوخ بضع مرات في ذاك اليوم وفي اليوم التالي خطر ببالي وفكرت فيه اكثر . فكنت اتخيل خوخا جيداً ناضجا جميل اللون على صحن ابيض وكان يخيل لي من وقت لآخر اني اشم رائحة الخوخ كأنه قريب مني حقيقة

وفي اليوم الثالث لم ينقطع عن خاطري ولم يغب عن فكري طعمه اللذيذ ولونه البهيج ورائحته الذكية الخ .ولم يمض اسبوع كامل على امر الطبيب حتى نفد صبري وازداد شوقي اليه حدة فلم اطق الامتناع عن تناوله وذهبت الى

بائع فاكهة فاشتريت منه خوخا واكلت منه ما يكفي لأن يعيد الي المرض في اليوم التالي وفعلا عاودني المرض مبكراً .

فلو لم يذكر لي الطبيب الخوخ ولو لم أفكر فيه مراراً كل يوم حتى قويت جاذبيته لنفسي لما أقدمت على أكله ولما عاودني المرض . ان الطبيب بتحريمه أكل الخوخ عليّ قد وضع أمام مخيلتي صورة جميلة من هذا الصنف وبكثرة تفكيري فيها اصبحت اشتهيها أكثر من المعتاد

ب — فبناء على ذلك يكفي الانسان ان يكثر التفكير في أي شيء لا تشمئز منه نفسه لكي يصبح ذلك الشيء يجذبه اليه بقوة

ا — هذا لا شك فيه وما عليك الا ان تجري التجربة بنفسك لتتحقق من صحة ما أقول . كم لبثت لا تأكل «الفول المدمس ؟»

ب — منذ ثلاث سنين تقريباً . وآخر مرة أكلت فيها هذا الفول كانت معك . أتذكر ذلك ؟

ا — نعم . وهذا حسن جداً ودليل على أنك لا تحب «الفول المدمس» بوجه خاص اذ لم تشته أكله منذ ثلاث

سنين . فجاهد من الآن ان تفكر فيه . فكر فيه كل يوم قبل الغداء وقبل العشاء وفي الليل خصوصاً قبل ان تنام . جاهد ان تفكر فيه بهذه الكيفية وخبرني ماذا ترى بعد اسبوع ؟

ب — أظن ان الحق بيدك . لأني من الآن أشتهيه فما بالك بعد اسبوع . فمتى نذهب الى ذلك الدكان الصغير لنأكل «الفول المدمس» في اطباقه البسيطة وما يقدم معه من التوابل الحريفة والبقول ؟

ولكن كيف يمكن تطبيق هذه النظرية على نظرية زوجي وخليلتي وما يجعلني أميل من احداهن وأميل الى الاخرى ؟

ا — ان نظريتك هي نظرية الخوخ والفول المدمس او الفاكهة المحرمة كما تسميها ولكنها بمثال مغاير

انك كنت تحب امرأتك في جدة الزواج وهي تحبك فلما تأكدت من حبها لك اصبحت لا تفكر فيها وصارت كالخوخ الذي كنت لا افكر فيه فلهوت عنها وضربت عن حبها الذكر صفحاً فلم يعد يشغل فكرك . ومن جهة أخرى وجدت امراة لا خلاق لها من الشمم قبلت ان تكون لك خليلة

ورضيتك عشيراً غير شرعي لأنك اجريت عليها قليلا من المال كل شهر تتقاضاه منك كخادم او عامل . انك تفكر فيها دون ان تشعر تفكر فيها بلا شك في الصباح وفي المساء وما بينهما تفكر فيها صباحا في بيتك بجانب زوجك لانك ستذهب اليها لتعلم حالها وظهرا لتراها قبل ان تعود الى قعيدة بيتك التعسة وتفكر فيها ليلا بعد ان تعود الى بيتك لتسائل نفسك بما عساه ان تكون عليه تلك الخليلة في غيبتك عنها الخ .

فترى انك تفكر فيها بالرغم منك دون ان تشعر . ومع الوقت والاستمرار في التفكر امكنك ان تحبها بلا انقطاع وتشتهيها كثيراً كما تشتهي «الفول المدمس» الآن واؤكد لك لو فكرت فيه اسبوعا تحور نفسك منجذبة اليه بقوة لايمكنك تصورها الآن واجداً اللذة في اكله ما دمت تفكر فيه والدليل ان العمال الذين لايعرفون غذاء غيره تقريباً يأكلونه بشهية اقوى من التي يجدها ذوو الترف والثراء في الوان اكلهم الكثيرة . لا اقول لا يشتهون اكلاً غيره ولكنهم يجدونه اقل ثمناً واجود تغذية من المآكل الرخيصة التي تسمح بها ارزاقهم الضئيلة باستمرار فهم . يفكرون فيه اضطرار من غير

انقطاع الا من يسر منهم وتسمح له ذات يده بالتفكير في ما أكل اغلى ثمناً فيلهو عن « القول »

وهذا هو السر في حبك خليلتك فانت أحببتها وستحبها ما دمت تفكر فيها متخذاً لها بيتاً خاصاً بها الخ

ب — امر غريب ... ألا يحب الانسان اية امراة الا اذا فكر كثيراً فيها ؟

ا — لا شك في ذلك

ب — ما رأيك اذن فيما يشاهد احيانا من ان يحب الانسان امرأة حال ما يراها اول مرة فيقع حبها في قلبه فيهدم صبره وثباته وحزمه ورويته و . . . و . . . الى آخر كل قوة فيه وهو ما يعبرون عنه بالصاعقة الحبية التي لا تحتاج فى تاثيرها على قلب المحب اياماً كما تدعي

ا — ويحك لا تغالط ولا تخلط بين الحبين فما ضربته مثلا لا يسمى حباً حقيقياً وانما هو حب امتلاك تدفع اليه الشهوة البهيمية الغريزيه في الانسان مهما تهذبت خلائقه على انه لا يحدث الا اذا كانت المرأة متناهية الجمال الذاتي فأين هذا من الحب الحقيقي الذي تتكلم عنه ؟ الذي يتكون بالمثابرة على

التفكير ؟ وهو ما ينطبق عليك . فزوجك اجمل ذاتاً واسمى خلقاً ونفساً وطباعاً من تلك الخليلة باعترافك وانك لم تحب الاخيرة الا بعد مدة من معرفتها . ألم يكن ذلك حقاً ؟

ب — بمزيد الاسف اعترف لك بصحة ذلك . فما الذي يجب عليَّ عمله ؟

ا — أقلل من التفكير في خليلتك بعد ان اتضح لك سر حبها وفكر ما استطعت في زوجك وقل لي ما تصل اليه في هذا الطريق بعد شهر انك لاتستطيع ان تنظر بنظري في حالك الآن مع تسلط تلك العوامل المتنازعة على قلبك وعواطفك كما يقولون « حبك الشيء يعمي ويصم » ولن تستطيع الا اذا أجريت التجربة بنفسك وسرت على الخطة التي وضحتها لك

ب — سأجاهد ان اعمل بنصيحتك واخبرك بما اصل اليه .

السهم الطائر غير متحرك (١)

اني انظر الى هذه الساعة لاول مرة

ا = أحق ما يقال عنك من انك تعتقد ان العصفور الطائر غير متحرك وان الطيارة السابحة في السماء ليست متحركة

ب = قد حرفوا لك القول عن مواضعه في توضيح فكرتي وانما الذي قلته : انه ليسهل للانسان ان يثبت ان السهم المقذوف في الهواء غير متحرك عن ان يثبت انه متحرك

ا = لم يحرفوا شيئاً في توضيح مرادك اذن وهل تظن ان مالديك من الادلة كاف لاثبات فكرتك ؟

ب = نعم . هل تأملت جيدا الى سهم وهو طائر ؟

---

(١) هذه فكرة للفيلسوف زينون والرد عليها بعضه مستنبط من آراء برجسن في الحركة بتصرف وضعا على هيئة مناقشة بين ا. ب. مع توضيح يسير ليسهل فهمها

انت تعلم ان السهم لايمكن ان يشغل موضعين متتابعين الا اذا منحته لحظتين على الاقل . تأمل الى السهم في كل من هاتين اللحظتين فتراه في كل لحظة منهما « في » موضع ما . ولو انعمت النظر اليه في كل نقطة من طريقه لوجدته « فيها » وهذا ما يمكننا من تصويره في اى موضع من طريقه بآلة التصوير الشمسي (الفوتوغرافيا) اذ امكان تصوير السهم في محل ما دليل على ان السهم كان ثابتاً في ذلك المحل ولو جزءاً صغيراً جدا من الثانية (١) وبما ان السهم ثابت في كل نقطة من طريقه فهو ثابت طول زمن الطيران

او بعبارة اخرى غير متحرك (٢) أفهمت كيف يكون السهم الطائر غير متحرك ؟

ا = هذه مغالطة لا باس بها

ب = كيف تسميها مغالطة اني لاراها نظرية صحيحة فلسفياً

ا = اما نظرية صحيحة فلا . ألا تبالي لو لطمتك على

---

(١) ليس هذا المثل (لزينون) فغني عن البيان ان الفتوغرافية لم تكن في عصره

(٢) المرجو تكرير مطالعة هذه الفقرة بدقة

وجهك الآن ؟

س = كيف لا أبالى ؟ ؟ . . ولماذا ؟

ا = للسبب عينه فانك لو تاملت الى ذراعي ملياً في كل نقطة من طريقه لرأيتها « فيها » وبما انها ثابتة في كل نقطة فهي كذلك طول طريقها وبعبارة اخرى غير متحركة. ففلسفياً يجب عليك ألا تبالى بلطمتى لان ذراعي لم تتحرك

س = انك تمازح محاولا ان تمسخ النظرية وتسخف رأيي بالضحك . فانت تهزل بينما أخاطبك بجد الحديث

ا = ألا تحس بضعف مغالطتك وفسادها حقيقة ؟

س = ان كان الامر كما تقول فبرهن لى انت على ضعفها وفسادها ما دمت ترمي تفنيدها سهلا

ا = ان السهم « ليس في » محل ما من طريقه

س = ما معنى ذلك ؟

ا = ان السهم يمر بالنقط ولكنه « ليس » ثابتاً في نقطة منها زمناً ما . بل يمر بالنقطة زمناً ما . فحينما تظن ان السهم المقذوف في نقطة س مثلا يكون قد انتقل بعد ان مر عليها فقط . وبما ان السهم غير ثابت فى اي نقطة من طريقه فمغالطتك فاسدة

ـ — ان برهانك هذا غير واضح تمام الوضوح

ا — أقول لك بعبارة اوضح اذا قذف السهم من النقطة هـ ليسقط في النقطة ء فحركته هـ ء بسيطة غير قابلة للتحليل بصفتها حركة كقوة الوتر الذي قذفها . فهي قذفة واحدة لا غير .

ومغالطتك آتية من انك تضع نقطة ثالثة مثل ه في طريق السهم وتقول انه في زمن ما من سيره « كان » في نقطة ه . ولو « كان » كذلك لدل على انه مكث فيها ولو لحظة ومن ثمّ لا توجد حركة واحدة من هـ الى ء بل حركتان احداهما من هـ الى ه والاخرى من ه الى ء وتكون ه نقطة استراحة في الوسط وهذا يخالف الفرض .

ان الحركة الواحدة الكاملة هي التي تكون بين موقفين اي سكونين . فلو وجدت نقط سكون متوسطة بينهما لا تعتبر حركة واحدة بل جملة حركات متتابعة . انك تسلم بان الحركه تلازم السكون وتستغرب مني ألا أوافقك واخضع لما تقول .

م = كلا انما استغرب منك انك تخالفني وانت غير قادر

على اقناعي والا فافصح لي عن مرادك بعبارة اجلى فربما كان الحق معك

ا = ماذا تريد اوضح مما قلت ؟ ان نظريتك على ما يظهر لا وجود لها الا عند رجل يلاحظ حركة السهم الطائر من بعد وهو يفكر كل لحظة في امكان وجود سكون في سيره مدعياً ان من الممكن تكوين الحركة الاصلية بواسطة تلك النقط الساكنة وهذا مستحيل فلا يمكن تكوين حركة من نقط ثابتة .

ان حركة السهم كحركة في الوجود لا ثبات لها على حالة ما او في موضع ما بل هي فيما « ستكون اليه » .

ب = ماذا تعني بذلك

ا = اعني ان المادة في تغير مستمر اي انها تتطور من حال الى حال ولا تثبت على حال فهي في تغير بين كل دقيقة بل بين كل ثانية واخرى (١)

ب = أتريد ان تقول اني لست عين الرجل الذي كنته منذ ثانية . ان كان هذا زعمك فهو كلام لا اصل له .. واظنك ..

---

(١) قد ذيلت هذه المناقشة بعبارة توضح الفرق بين ما كان من المادة من الكائنات الحية وغيرها

ا = اسمع . ما الذي يمنعك ان تسلم « انك لست « عين » الرجل الذي كنته منذ ثانية » فترى من العبث الادعاء انه في ثانية واحدة قد تغير كل منا ولو قليلا . واننا لا نزال كما كنا ؟ ألا ينبني على رأيك هذا ان التغير الذي يطرأ علينا في ثانية يساوى (صفراً) ؟

وعليه يكون التغير الذي يطرأ علينا في ساعة لا يزال صفراً لانه ٣٦٠٠ ثانية × صفر = صفراً ولا يزال كذلك في يوم حيث

الـ ٢٤ ساعة × ٣٦٠٠ ثانيه × صفر = صفرا وبهذه الكيفية يكون تغيرنا بعد سنة = صفرا ويكون هذا شأنه بعد مرور ٢٧٥ سنة مثلا .

وبما اننا نستمر على حالنا هذه دون تغيير سنجتمع هنا كما نحن الآن امام هذه المائدة وامام هذا الخادم الذي لن يؤثر عليه كر الغداة ومر العشى مثلنا . فطب نفساً اذن فانت خالد في هذه الدنيا باق على شبابك الغض

ب = يلوح لي انه لا مهم لك الا تسخيف ارائي

ا = اخطأت بنسبتي الى ذلك واظنني فهمت مرادك .

ولعلك تقر ان الانسان يتغير بمرور خمسين عاماً لكنه لا يتغير كل ثانية وهذا مستحيل لانه متناقض . وفي الفلسفة انه اذا تغير الجسم ولو قليلا فلا يصح لنا ان ننكر هذا التغير فنقول ان الجسم لا يزال كما كان .

وبما ان الجسم يتغير شيئاً فشيئاً كل لحظة فهو غير ثابت على حال مخصوصة بل يتغير ويصير الى ما لم يكن عليه من قبل وبعبارة اخرى الجسم (كالسهم الطائر) ليس على حالة مخصوصة بل هو على « ما سيكون » (في تغير مستمر)

ب = أتظن ان ما اجهدت نفسك في تقريره ظاهر مقنع ؟

ا = لِمَ لا يكون كذلك ، ألم تفهم مرادي الان ؟ انك بادعائك عدم فهمه تجعلني اعتقد في نفسي العي والعجز عن توضيح ما في ضميري او انك تشتمني تعريضاً بنسبتي الى ذلك .

ب = عفواً ياعزيزي لم اقصد شيئا من ذلك ولم يخطر لي ببال .

ا = ما علينا . دعنا نتكلم في شيء آخر لعلي اوفق الى تفهيمك مرادي في فرصة اخرى .

كيف تقضي ايامك في هذا البلد

ب = اقضيها متضايقاً

ا = أتذهب كثيراً الى دار التمثيل ؟

ب = لا .

ا = رأيتك صباحاً أمام دكان صائغ في شارع شريف يأشا على ما أتذكر

ب = نعم ذهبت اليه لآخذ ساعتي التي كانت وقعت من جيبي فانكسرت وكلفته باصلاح ما طرأ عليها فأنظر كيف أصلحها وجبر كسرها فلم يعد يرى . . . ان هذا الغطاء كان قد انحنى وانشق

ا = انها ساعة جميلة متى اشتريتها ؟

ب = انها ساعتي القديمة التي رأيتها كثيراً وعرفتها جيداً

ا = لم أرَ هذه الساعة قط والآن انظرها لأول مرة

ب = مالك تنكر معرفتها ؟ ألم ترها في الاسبوع الماضي وقلبتها بين يديك مدة طويلة وقلت انها جميلة ؟ أليست هي هذه الساعة بعينها التي كنت تريد ان تشتريها مني ؟

ا = اتذكر اني رأيت معك ساعه قبل آلان تشبه هذه الساعة

ب = ثق انها هى بعينها ولم يكن عندي ساعة سواها

ا = لا أظن اني رأيت هذه الساعة بعينها قبل الآن بالرغم من تأكيدك

ب = ماذا جرى لك ؟ أمعن النظر فيها مرة أخرى

ا = قد فعلت ومهما بالغت في تدقيق النظر اليها كما كنت انظر ساعتك في الاسبوع الماضي بزاوية مخصوصة تحت مقدار من الضوء كالذى كانت فيه فلا يمكنك ان تمنع ساعتك من كونهاصارت أقدم مما كانت عليه حينئذ (١) ولا ان تمنع عيناي من كونهما قد ضعفت قوة نظرهما ضعفاً ما بحيث لا يدركان بمقدار ادراكهما من اسبوع (٢)

قدمت ساعتك في جيبك وضعفت عيناي ولو قليلا وهذا التغير لا يمكنك نكرانه . فلا تستطيع ان تقول ان هذه الساعة

---

١ ـ ليست هذه الفكرة لبرجس . « انظر ما ذيلنا به هذه المحاورة »

٢ ـ هذه الفكرة لبرجس

هي هي كما كانت عليه ولا ان تقول ان عينيّ لم يطرأ عليهما تغير.

فاذا كان الامر كذلك فلا ينبغي لك ان تشتغرب مني ان اجهلها بالمرة ما دام التغيير طرأ عليها وعليّ وما دمنا نتكلم فلسفياً

ب = ما الذي ترمي اليه بهذا القول ؟

ا = أريد تفهيمك ان الساعة « ليست » في حالة ما بل في تغير مستمر هي فيها « ستكون اليه »

كالسهم الطائر الذي « ليس » في زمن ما ثابتاً في نقطة ما بل هو فيها « سيكون »

ب = قد فهمت مرادك ولا بأس بيرهانك .

ا = أشكرك يا عزيزي

ذيل

يلخص فكرة برجسن المتقدمة

وما طرأ عليها من التحوير في مناقشة أ ر المتقدمة

يقول برجسن ما معناه

يحور الانسان بلا انقطاع من حال الى حال فهو يشعر تارة بحرّ وأخرى ببرد وطوراً يكون حزيناً وحيناً يكون جذلا تمر به احوال واحساس وشعور . فهو في تغير مستمر

لا يمكن الانسان ان يعيد جزءاً من حياته الماضية ولا ان يمر بحالة هي عين حالة مرت به اوأن يشعر باحساس هو نفس احساس شعر به من قبل . ذلك لانه مهما كانت المسببات هي التي سببت حالاته الماضية فهي لا تؤثر على « عين » الانسان الذي مرت به بل تؤثر عليه في زمن آخر من حياته خالف فيه ما كان عليه من قبل اذ ان شخصيتنا وما

تحتويه تكونت وتتكون بلا انقطاع بالتجارب ومن مرور الزمن علينا . فبما ان الانسان ليس في حاضره على ما كان من قبل بل تغير ولو قليلا فلا يمكن ان يوجد في حالة هي عين حالة كان عليها ولو وجدت نفس المؤثرات التي كونت الحالة الماضية

هذا بالنسبة للانسان الحي أما الجماد فهو بخلاف ذلك لان جوهره لا يتغير.

وقد يتغير حال الجماد بتغير اجزائه الى من الممكن ان تعود على ما كانت عليه . وان جسما من الاجسام يمكن ان يعود الى الحالة التي كان عليها من قبل اما بنفسه واما بقوة خارجية تعيد كل جزء الى مكانه دون ان يعضه الدهر بنابه بخلاف الانسان وكل كائن حي . وحاصل فكرته ان الانسان يتغير ويهرم بين برهة وأخرى ولا يمكن ان يرجع الى ما كان عليه أما الجماد فلا يهرم ويمكن ان يرجع الى ما كان عليه . ولا يخفى ان رأي « برجس » هذا أساسه ان المادة لا تنعدم وهو رأي دحضه العلم وبرهن أخيراً على فساده وبناء على ما أثبته العلم حديثاً وهو (ان المادة تنعدم) يمكننا ان نقول في الجماد ما قاله في الانسان اي ان كل ما كان من المادة في تغير

ستمر وبعبارة اخرى ان جميع الاجسام تتغير كما يتغير الانسان تهرم الا ان تغيرها بطيء جداً .

وبما ان المادة سائرة الى العدم نقول ان هذا التحول يحصل بلا انقطاع وان الاجسام الجامدة تهرم ببطء الى ان تفنى كالانسان وعليه لا يمكن ان يعود اي جسم الى نفس الحالة التي كان عليها بالرغم من وجود نفس المؤثرات والقوى اللازمة لارجاعه الى حالة كان فيها لانه قدم ولو قليلا وبقدمه تغير والمؤثرات مهما توفرت لا يمكنها ان تنتج فيه ما انتجته قبلا . ؟

الشك

يقول فلاسفة الشك ان الانسان لا يمكنه ان يدرك حقيقة الاشياء ويؤكد الاحاطه بكنهها نظراً لضعفه ولو صادفها لعجز عن معرفتها ويبنون ذلك على دعائم متينة يصعب تقويضها وتؤدي بالانسان الى الشك في كل شيء اذا نهج منهجهم في النظر والاستدلال وقد اتخذ بعض الادباء تلك النظرية دَخلاً فكتبوا فيها الفصول الطوال وبالغوا في مقالهم كما هي عادتهم حتى قال بعضهم « لا يجب الشك في حقائق الاشياء فقط بل يجب الشك في شكنا الخ »

وتصدى جماعة لنقضها فمحوا منها نقطاً هامة لم يتعرضوا لها طمساً لمعالمها ومغالاة في مذهبهم وقالوا في تسخيفها والتشنيع باربابها « ان الفيلسوف الشاك يشك في وجوده ويشك في شعوره ويشك في البديهيات بل انه ليشك في الاشياء المحسوسة كـكون النار محرقة والاشياء الثقيلة تسقط الى الارض بطبيعتها اذا تركت وكون الليل مظلم والنهار مضيء الخ »

غنى عن البيان ان فلاسفة الشك لا يشكون في مثل هذه

الاشياء وان نسبهم معارضوهم الى الشك فيها والا لسهل اقناعهم وتفنيد نظريتهم

ان الشك الفلسفي الذي يصل اليه الفيلسوف يخالف باقي الشكوك وتلاحظ انه لا يتعلق بالظواهر . لا يشك الفيلسوف في كون العسل حلو والصبر مر والنار محرقة او ان بعض الاشياء خاضع الى قوانين ثابتة والبعض على خلاف ذلك انما يشك في كون هذه الاشياء هي كما تظهر له ويحسها حقيقة يشك فيما لو كان الالم الذي يشعر به حين وضع يده على النار هو عين الالم الذي يحس به باقي الناس ولا ينكر ان النار تحرق وتؤلم

يشك فيما لو كانت حلاوة العسل التي يجدها بذوقه هي عين الحلاوة التي يجدها غيره ولا ينكر ان العسل حلو

فمن ثمة كانت نظريتهم متينة . لايمكن ان يتصور ان فيلسوفاً عاقلا يشك انه لو غيب تحت الماء لا يموت غرقاً أو لو ألقي من السطح لا يسقط على الارض فيتهشم وربما زهقت روحه او انه اذا القي في النار لا يحرق

ان هذه الاشياء وامثالها حقائق محسوسة لايشك فيها

الجهلاء فكيف يشك فيها فيلسوف قتل الدقائق بحثاً

فوضع شك الفلاسفة لا ينافي وجود قوانين ثابته اتفق الناس على تسميتها حقائق وبديهيات ونحوها

المعجزة

ب = ماالذي اغضبك من محمود ؟

ا = اغضبني منه جموده على اعتقاد باحثته فيه من قريب

ا = ما هو؟

ب = انه متمسك ببعض روايات عن حوادث قديمة لا يقوم عليها دليل . يعتقد في صحة المعجزات يؤكد لي ان النبي (صلعم) مسح بماء على ذراع مقطوعة فعادة الى ما كانت عليه سليمة فهل مثل هذه الحادثة يمكن وقوعها ؟

ا = لا أدرى ان كانت هذه الحادثة عينها وقعت

ب = أترى على وجه العموم امكان وقوع مثل هذه الرواية

على يد نبي ؟

ا = لِمَ لا ؟

ب = ألا ترى ان هذا مستحيل

ا = ان لفظ المستحيل ليس له معنى هنا فاذا كان صديقك أكد لك صحة وقوعها فلا بد ان يكون لديه ما يؤيد به قوله واذا كانت هذه الحادثه وقعت فعلا فلا داعي لقولك انها مستحيلة

ب = مثل هذه الحادثه لا يمكن ان تكون وقعت ولا يمكن ان احد رآها اذ العقل لا يتصور ان عضواً فصل من الجسم ينمو ويعود الى ما كان عليه

ا = مه . انك تتشبث برأيك اكثر من صديقك الذي تغضب منه .

لو كنت رجلا علمياً حقيقة مذهبك القياس لقلت له اذ برهن لك على صحة روايته . «يجوز» بدل ان تتشبث بتكذيبه

ولقلت : ان حادثة كانت تظهر لنا مستحيله حتي وقعت تجعلنا نظن ان المواد المكونة للذراع اذا ما وجدت في حالة

معينة تكسبها خاصية العودة الى أصلها اذا بترت كارجل السرطان البحري وذيل الحرذون او الضب ولكنها تخالفها في السرعة (١)

وبالرغم من ان هذا الحادث يخالف ما كنا نعتقد فلا ينبغي ان نكذب المشاهدة . لان هذا نتيجة عدم المامنا بكل شيء فان من المسائل الطبية ما هو غامض الى الآن لم يتوصلوا الى حله وكشف انتقاب عن غموضه

فأولى لك ألا تطيل الجدل فيما لا تعلمه وان تنسبه الى الجواز

---

(١) المظنون ان هذه الفكرة لآناتول فرنس الكاتب الشهير

بين مسلم وآخر منتصر للبهائية

ا — ما الذي يدعوك الى ذم الدين الاسلامي

ب — انا ؟ لم اذمه ولم اقل شيئاً ضده

ا — ولكنك تمدح البهائية

ب — نعم . وعلى اي شيء يدلك ذلك

ا — ان مدحك البهائية وانت مسلم ذم للدين الاسلامي وطعن في اسلامك لا سيما اذا جهرت به بين جماعة من المسلمين

ب — ألست حراً ان اقول ما اريد من الحقائق ؟

ا — ولكنك بكل اسف لم تلفظ بحقيقة بل انك تتكلم باشياء لا تليق بمن كان مثلك

انك تقارن بعض شبه في الدين الاسلامي بما زخرفته لبهائية . هذه طريقة عقيمة لا يستعملها من ليس له غرض لا اخراج حقيقة صريحة للناس . اجل انها خطة خسيسة لا

يستعملها الا ذو غرض . في كل دين امور صريحة وشبه لا يعقلها الا علماؤه واما المسلمون فالدعامة القائم عليها معتقدهم ما جاء في كتابهم من قوله تعالى (هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخرى متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب)

واؤكد لك انه لولا الامور المبهمة في الاديان لما اختلف الناس في دين

س — ما الذي ترمي اليه بقولك هذا

ا — اريد ان افهمك اني لست متعصبا وان الدين الاسلامي يحتوى على المحكم (اي الصريح) والمتشابه الذي يحتاج في فهمه الى تعمق ورسوخ وعكوف على دراسة اصوله وما يستدعيه ذلك من دراسة علوم اخرى واري ان تعرضك لنقد ما تشابه من ذلك الدين ومقارنته بما زخرفته البهائية يناقص الصراحة والامانة والشرف وكيف بمن ينسب للدين الاسلامي يلفت نظر اعدائه الى ما هو مبهم او متشابه فيه والى ما هو مزخرف

في سواه ؟ اهذه طريقة جدل حسنة ؟ لم لا تلفت المسلمين الى النقط الواهنة التي اسست عليها البهائية

ب — قلت امس . . . .

ا — بلغني ما قلت ولا ادري ما عرضك به اللهم الا ان تكون طالباً الشهرة فان كان هذا غرضك فهو في منتهى الحسة

ب — ارجو ان تحاسب نفسك على هذه الالفاظ الجارحة التي تكيلها لي جزافا واكرر لك القول بأني حر في اعتقاد ما أريد

ا — قد يكون لك ذلك وقد تساعدك نظم المحاكم المدنية في عصرنا الحاضر ولكنك لست حراً ان تترك لتعبث بعقائد الشبان بمغالطات تافهة تعلم انهم لا يقدرون على تفنيدها ولنرجع مع ذلك الى اعتقادك الجديد لترى انك تتكلم في موضوع تجهله بالمرة

ب — انا اعلم منك به

ا — لا ادعي اني اعلم منك به بل اعترف بقصوري عن فهمه حق الفهم كما يفهمه عالم ديني قضى حياته في تلك المباحث وارى من العار ان تتكلم الانسان بثقة فيما تجهل وانت تجهل الديانة الاسلامية بالمرة ولم تقرأ منها الا قشوراً كما يدل عليه كلامك

فيها بل يظهر لي انك لم تتل المصحف الشريف مرة واحدة في حياتك .

اتذكر ما قلته فى الجنة والنار من ان وصفهما . . .

ب — نعم قلت ان الديانة الجديدة تنفى تلك الافكار القديمة التى تقرب من الخرافات وتنبيء ان ارواحنا بعد الموت تذهب الى احد الكواكب لتتعذب او لتتنعم وقلت ان وصف الجنة والنار في القرآن مما لا يقبله العقل .

ا — اي عقل تعني ؟ وعلى اي قياس تجرى وبأي تأويل تفسر ما قرأته او قيل لك ؟ ان في القرآن آيات ظاهرة للعامة الذين يحتاجون الى تهويل في الترغيب والترهيب ليقوي ايمانهم ويقبلون على الطاعة واخرى لا يعقلها الى العلماء . كما تشير اليه هذه الآية منه (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان اكثر شيء جدلا) (١)

من يدريك ان القرآن ينافي الفكرة التي ذكرت ؟

ب — اين ذلك ؟

ا — قال تعالى (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها

---

(١) وهذه «وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون»

السموات والارض اعدت للمتقين) . اي ان عرضها الكون كله الذي لا حد له

فاذا اخذنا بظاهر الآية لزم ان تكون الجنة التي عرضها السموات والارض خارج الكون وهذا مستحيل

ولا يمكن ان تكون داخل الكون لانها تكون اصغر من السموات والارض التي هي عرضها فدلنا ذلك على ان المراد من الآية الكناية عن وسعها بالتعبير بأوسع ما عرف الناس وانها داخل الكون من غير تحديد ومثل هذه الكناية شائع مستعمل بكثرة عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وهو في الوقت نفسه لا ينافي المذهب البهائي الذي تقول عنه

تقول ان الدين الحديث المبني على الآراء الحديثة وعلى العلم الحديث تنبيء ان روح الانسان ستحل في جسم آخر وتشكل آخر الخ وليست كما يقول القرآن من ان الارواح ستعود حين البعث الى اجسامها وان الناس يتحدون بعد البعث في سن الشباب فلا يبقى هرم على هرمه ولا طفل على طفوليته يتحد الكل في الشباب والنضرة والجمال والقوة الخ

وتقول ان هذا اوضح مثال تصوره عامة الناس واما

خاصة العلماء فيجدون اوسع مجال لعقولهم كما يجد ارباب الافكار الحديثة ما يلائم مباحثهم في مواطن كثيرة من القرآن منها : (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون)

فما معنى هذه العبارة الاخيرة ان كنت ممن يفهمون ؟ ألا يمكنك ان تجد بقراءة القرآن وتدبر معانيه رداً على كل فكرة حديثة تظنها بدعا من العقول قبل ان تتجاسر على انتقاد دينه ؟ فابدأ بدرس ذلك الدين ثم انتقده ان استطعت

اعتقد ما شئت وشاء لك هواك ولا تفسد على الشيبة عقائدهم لك دينك ولهم دينهم

ب = فليكن ذلك وانما الذي قلته والذي دارت عليه المناقشة بالأمس هي الفكرة التي لم تتعرض لها

ا = وما هي فربما لم ينقل اليّ جميع مقالك

ب = قلت ان المسلمين على الأخص يقولون ان الله يعلم الغيب اي انه يعلم ما سيكون وما سأعمل بعد سنة او اكثر مثلا فاذا كان الامر كذلك فلا يمكنني ان اعمل ما يخالف علمه لان في ذلك ما يناقضه . ويستنتج منه اني لست مخيراً أفعل

ما أشاء واذا كان الامر كذلك فما الحكمة في عقابي . الا يكون ذلك ظلما ؟

ا = كلا هذه مغالطة ضئيلة كخافة افكارك ان المسلمين يعتقدون ان الانسان حادث له اول وآخر وان الله ازلي لا اول له ولا آخر واذا كان الامر كذلك فلا يوجد بالنسبة له ماض ولا مستقبل لان ذلك يستوجب وجود اول وآخر له تعالى .هل انت فاهم ؟ يستنتج من ازلية الله ان كل شيء بالنسبة له حاضر في علمه فهو يعلم الاشياء حاضرة لا كما ترى انت ماضياً ومستقبلا لكل عمل وما تراه بعيداً فهو قريب في علمه لا يغيب فانت مخطيء في نسبة الظلم الى الله اذ يعاقبك على المعصية لما اودع فيك من الجزء الاختياري الذى لم تستعمله فيما امر به وهو شاهد عليك . فان كنت ممن يقبلون النصيحة فاعمد الى فهم اصول الدين قبل ان تتشدق بالاعتراض على مسائله الفرعية .؟

مجنون هندي

سمعت من بعض الاخوان بهذا المجنون انه قضى حياته في الاشتغال بالفلسفة وانه غريب الافكار والاطوار وكثيراً ما ينصح للناس ويحثهم على اتباع مذهبه الذي يبالغ في تحسينه ويغلو في بثه وترويجه بين الناس كما انه يجيب من يسأله أياً كان على الفور من غير مبالاة . ولا يحقر انساناً مهما كانت صفته وآراءه ومذهبه . وهذا ما جعل الناس يسمونه المجنون .

ذهبت اليه ذات يوم مع احد اقاربي لنرى هذا الرجل ونقف على شيء من احواله ونسأله عن بعض اشياء غامضة علينا ان امكن .

دخلنا منزله . لم يمض وقت طويل حتى حضر وحيانا باختصار فرأينا رجلا ذا لحية بيضاء طويلة يبدو عليه اثر الانهماك في الدرس والمطالعه وكلال الذهن كما تدل ملامحه وحركاته على ضيق خلقه وسرعة غضبه ثم شرع يسألنا من اين جئنا فاخبرناه

اننا نسكن بجواره فنهض من مكانه وأخذ يمشي في الحجرة بسرعة وقال لنا

— او كنتما تنتظران زيارتي لكما ؟ ما منعكما ان تجيئا قبل اليوم ؟ ان مجيئكما يدل على رغبتكما في معرفتي . من انتما وما اسمكما؟ وما الذي دعاكما للتفكير في زيارتي اليوم ؟ غريب . .

استمر يتكلم هكذا موجها الينا الاسئلة غير منتظر الجواب ثم قال :

— اشكركما على هذه الزيارة . وارى في اهتمامكما بمعرفتي دليل على حبكما الفلسفه أليس كذلك ؟ اشتغلا بها خصوصاً بالجزء الذي يبحث عن الانسان وعن حاله وحقيقته فمن عرف نفسه فقد عرف ربه ومن عرف ربه عاش هنيئا. اشتغلا بالفلسفة فمن العار ان يشتغل المرء بأشياء كثيرة لا يهمه علمها ويجهل أهم الأشياء المتعلقه بذاته ومعرفه نفسه .

اتعرفان السبب الذي يجعلكما تحبان بعض الناس وتكرهان البعض على غير سابق عداوة اوصلة ودية مثلا ؟ كيف تفكران وكيف تذكران وكيف تتخيلان الاشياء ؟ ماذا يضعف تلك الحواس وماذا يقويها؟ أتعرفان على اي شيء تتوقف ارادتكما

التي تدفعكما الى اي عمل والتي توقف تيار شهواتكما الخ . ؟

وا أسفاه على الشباب ! وا رحمتاه على رجال المستقبل الذين يعول عليهم في النهوض ببلادهم . عجباً لأناس لا يدرون اسباباً لقوة الارادة او لضعفها . يظنون انهم قادرون على تربية اولادهم تربية يكونون بها رجالا اقوياء يغنون وطنهم عن سواهم ويحمون ذماره .

اي قيمة لانسان لا يعرف مواطن الضعف من نفسه فيبادر بمعالجتها . يذهب الى الطبيب عند اي مرض جسماني يصيبه فالى من يذهب ليعالج امراض نفسه ؟ اين اطباء النفس ؟ فالناس احوج اليهم من اطباء الاجسام .

ما سبب فرح الانسان وحزنه ؟ وعلى أي شيء تبني ميوله التي تكبر وتتجسم حتى يصبح غير قادر على كبح جماحها ؟

يدعي كثير من الشباب معرفة المنطق والتكلم بالمنطق وهم يجهلون المنطق جهلهم دينهم والالهيات والطبيعيات ومن ادعى منهم علم شيء من ذلك لا يعرف منه اكثر مما يعرف سائق عربة (الترام) قوانين الميكانيك والكهرباء

يؤلمني ان اتكلم في هذا الباب وان لم اطق عنه صبراً

فأني سئمت الكلام عن المدارس المصرية والتدريس المصري والطرق العقيمة التي يسير عليها المعلمون والمتعلمون سئمت من غطرسة أولئك المدرسين وصلفهم واحتقارهم للغير وادعائهم . لا يرون لغيرهم وجودا ولا يقيمون لغير مدارسهم وزنا .

ارجوكما ألا تكلماني في هذا الموضوع (ألفت نظر القاري، انا لم نتبس لفظة واحدة) لا تكلماغيري فيه فانه لا يكسبكما الا عداوة الناس انكما شابان في مقتبل الحياة

ان الناس في هذا البلد يحتقرون كل من له مبدأ في الحياة وكل من له ولع بعلم خاص لا سيما علم اللاهوت

يحتقرونني وينظرون الي شزرا . يقولون . . . مسكين . . مجنون . . . مهووس . . . احمق والله يعلم من الاحمق . صدقوني ان هذا هو الحاصل وهذا ما يقال عني لا تنكروا علي ذلك لانكما ربما كنتما على شاكلتهما وان سبب زيارتكما لي لتريا المجنون الذي سمعتما عنه وعن شيء من افكاره

ان ما نقل اليكما من افكاري مشوه ولا ريب كما هي عادة النقل هنا

لست بصاحب مذهب فلسفي كما يدعون بل اعتقادي

هو اعتقاد الجميع لا اخالفهم الا في اليسير

لا اطلب من الناس الخضوع لآرائي انما ابحث عن اصدقاء لافكاري . . . اصدقاء يقبلون ان يصبروا في الحياة بجانبي . . . اصدقاء يوافقونني تارة واوافقهم اخرى كلما اتضح الدليل ولا ابحث عن اولئك الجامدين الذين لا يُزحزحهم دليل ولا يؤثر في مكابرتهم برهان .

انكم لم تسائلا انفسكما قبل ان تحضرا الى هنا لتقفا على بعض آرائي حتى تقارناها بآرائكما . فعملكما هذا لا يجديكما نفعاً . ابحثا بانفسكما ولا تخافا ان تنفردا برأي يخالفكما فيه الجمهور

ان الهى الهكم ولو رماني بعض الجهلاء بالكفر انا لا اخالف الا مذهب الطبيعيين اما باقي الاديان فترجع في نظري الى اصل واحد هو الاعتراف بوجود الآله وان اختلفت في بعض امور ثانوية . كل حزب ينهج في دينه منهجا لا ينهجه الآخر ويصف الهه بصفات ويسميه باسماء وينسب اليه اشياء قد يخالفه فيها الآخرون . ان الآله اكبر من ان يحيط به وصف او ان تحصر اعماله حد او يعبر عنها بلفظ ولكن الناس محتاجون

لذلك في اظهار عبوديتهم وتوضيح معتقداتهم فانا اعتقد ان الهي رؤوف رحيم بعباده الضعفاء فانا لا اتصور الآله كما تتصورونه اذا أراد احدكم ان يتصور الآله (ولو ان ذلك لا يجوز في اكثر مذاهب المتدينين) يتصور ذلك الآله المنتقم من عبده الذي سيعاقبه في نار جهنم طول الابد لانه ارتكب بعض ما حرم عليه فى حياته الصغيرة يتصوره في هيئة رجل فى يده (بلطة) رافعها للضرب والانتقام

الهي الهكم ولكنى لا افسره مثلكم

فما العقاب اذن الذي سيعاقب به الانسان على ما عمله في حياته من المحرم ؟ . .

ان كان ولا بد من العقاب فاقول ان الهي يعاقب الناس عقاباً معنوياولو اردت لقلت لكان الانسان هو الذي يعاقب نفسه لما يفعله . ان الهي كوالد شفيق يحب اولاده كما يحبونه نهاهم عن ارتكاب بعض اشياء فاذا ارتكبوها آسفه عدم اطاعتهم ما امر به واعتقادي انه لا يعاقبنا على ما نفعل ولكن الانسان لا يمكنه ألا يتألم من ان يرى ربه ذلك الوالد الشفيق غضبان آسفاً لعدم اطاعة اولاده لاوامره ولا يمكنه عدم

مشاركته في اسفه وهذه المشاركة هي العقاب الوحيد

ان الدليل على ان الألم والحزن من الاشياء التي يشارك الانسان غيره فيها على الرغم منه انه اذا كان جالساً في مطعم وامامه قطعة من الخبز واخرى من اللحم وهو جوعان ثم شرع في الاكل فلا شك انه يشعر بسرور وراحة في ذلك الوقت فلو مر به مسكين اصفر الوجه ممزق الثياب هزيل الجسم تعلوه سيمى الألم من الجوع ووقف ذلك المسكين امامه ينظر اليه ويراقبه وهو يأكل لما امكنه الاستمرار على الاكل بالشهية التي كان يجدها والسرور الذى كان يخالجه قبل وقوف المسكين امامه وان لم يطلب منه شيئاً

ان حال المسكين الذي ينظر الى من يأكل ولسان حاله ناطق بما انطوى عليه من ألم وحاجة الى الطعام قاطع بلا شك لشهية الآكل جاب له الألم وانقباض الصدر . فيكون قد شارك الفقير في الألم وذاق العذاب الذي يعانيه دون ان يشعر

واعتقادي ان العقاب الذي سنلاقيه في الآخرة يشبه هذا الالم المعنوي حينما نرى ربنا وخالقنا غير راضٍ عن اعمالنا التي لم نتبع فيها اوامره ونواهيه .

لو اضطررت الى تصوير الهي لأناس يحتاجون الى ذلك لصورته في صورة اب رحيم غير منتقم من اولاده بقسوة لما يجده منهم من عدم اطاعتهم له.

عجبا لكم أيها الناس كيف لا تتصورون ان يرأف الحكم اللطيف الخبير بما انتم عليه من الضعف وما يتساوركم من عوامل الشر بينما ترون حكماءكم يرأفون بحال الخلائق ويعذرون من نكب عن جادة الهدى لما وصلوا اليه من الحكمة وكرم الاخلاق والشفقة؟

فما ظنكم برب العالمين وارحم الراحمين؟ وهل ما وصل اليه الحكماء وما اودع في قلوبهم من كرم ورأفة ورحمة بالشيء المذكور يجانب كرم الله ورأفته ورحمة؟»

قال ذلك وودعنا فنهضت وصاحبي من دار ذلك الرجل الذي افعمنا تأثيراً وهالنا امره وما اوتي من قوة التعبير بلهجته السريعة وصوته الجهوري الذي لا يتهدج مع ما وصل اليه من سن الشيخوخة مما لا يتوفر لكثير من الشباب فقلت لصاحبي

— ما رأيك في الرجل

— يظهر ان للناس بعض الحق في تسميته بالمجنون وان

كنت لا اشك ان الرجل قضى حياته في الاشتغال بالمباحث الفلسفية لا سيما الالهيات وانه ما وصل الى هذه الدرجة من قوة التعبير والجرأة الا بكثرة التعمق في البحث ومناظرة العلماء وان له افكار صائبة ان صحت نسبتها له ونصائح ثمينة وان لم يتكرها من ذلك الحث على الشجاعة الادبية في التمسك بالرأي السديد مهما خالف الناس والاشتغال بما يتعلق بمعرفة الانسان نفسه ولكنه مع الاسف مصاب بالهوس الذى هو داء الكبر وقلما ينجو منه من ازمن على الدرس والمطالعة فى هذه المواضيع . ألا ترى انه بالرغم من سعة اطلاعه وغزارة علمه وقوة تعبيره وجهورة صوته لا يستطيع ان ينظم افكاره ولا ان يرتب عقيدته المطربة وحسبك ما يسميه اراء خاصة له فما هى الا خليط من المذاهب والاديان . فمسألة الرجاء والخوف عندنا معشر المسلمين كجناحي الطائر لا يستقيم سيره بأحدهما وان استحسن تغليب الاول فى المرض او الهرم ولكن لا خوف الا من الانتقام والانتقام يكون بعذاب النار فى الآخرة وكون هذا العذاب حسياً عقيدة ثابتة فى نفس المسلم فضلا عن اعتقاده فى ان رحمة الله وسعت كل شيء . ولطفه بعبده ثابت بوعده

ولا يجهل مسلم حكمة التعذيب ولا فهمه بالنسبة لضعفه وقدرة الله المطلقة وكم مسلم اساس ايمانه الحب ورأس ماله فى اعماله الطاعة وليس له من مطمع غير القرب وهو مع ذلك شديد الخوف من الله كثير الشفقة على عباده فاذا ذكر الله وجل قلبه واذا سمع آياته ازداد ايمانا اما مسألة تصوير الالم فهذه جرأة ينشأ عنها التحديد والمسلم ينزه ربه عنه كما ان دينه يأبى عليه التجسيم ولا يتجاوز فى استحضاره اكثر مما عرفه به من صفاته واسمائه ولا يكون في حاجة الى شيء من ذلك اذا تلا بتدبر سورة (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد لم و يولد ولم يكن له كفواً احد)

واذا اشتد خوفه تلا بتدبر قوله تعالى

(قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم)

أليس كذلك ؟ » فقلت له

= هذا صحيح

فقال :

= كنت أود لو مكننا هذا الرجل من المناقشة ان

اطرح عليه سؤالا في نظرية التقييد فقد سمعت بالامس عثمان يعترض على سالم فيقول : انك بتجريدك الانسان من الارادة وقولك انه مسير لا مخير جعلته كالحيوان الاعجم

= وبماذا اجاب سالم ؟

= قال له : هذه مغالطة ضعيفة وما المانع ان الانسان يشبه الحيوان الاعجم في صفة مع انه يشاركه في كثير من الصفات فهو يشارك الحيوان في انه ياكل ويشرب ويهضم ويرى بعينيه ويسمع بأذنيه الخ . أتريد ان يسمع الانسان بغير أذنيه كي لا يشبه الحيوان في ذلك ؟

على اني لا انكر ان الانسان ارقى اصناف الحيوان واشرفها وهو يمتاز عليها بقوة العقل والتفكير كما تمتاز بعضها عنه بقوة بعض الحواس كالشم والنظر ولا ما من ان يكون مقدار الارادة اي الجزء الاختياري عنده اكثر منه في باقي الحيوان من غير ان يكون ذلك كافيا ليجعله مطلق الحرية أو انه يشبه الحيوان في مطلق التقييد » فقلت له

= ان الرجل ما زال على قيد الحياة مقيما بجوارنا فزره متى شئت لعلك تجد فرصة تمكنك من سؤاله .

هل في ذلك من معذرة

اذا جاز لأنسان ان يتأجر في صنف من البضائع برأس
ال قدره مائة جنيه فقط وهو يعلم ان كثيراً من الشركات
تاجر في هذا الصنف بآلاف الجنيهات ولا يكون ملوما سواء
بح ام خسر

واذا جاز لأنسان ان يشتغل بحرفة الطب بعد دراسته
هو يعلم ان الوف الاطباء الماهرين في بلده ولا يكون ملوما
لى عمله .

واذا جاز لأنسان ان يشتغل بالشعر بجانب آلاف المجيدين
ن الشعراء وهو يعلم بذلك وبمن تقدمه منهم بشعر خالد. اذا
جاز لكل من هؤلاء ان يشتغل بما تميل اليه نفسه ولا لوم عليه
ولا تثريب

فهل يجوز للأنسان ان يشتغل بالفلسفة ويكتب فيها
هو يعلم ان فى العالم آلاف الفطاحل من الفلاسفة المجيدين ؟

وهل على الانسان ان يتريث بمزاولة ما يميل اليه من
عمل حتى يصل الى درجة الكمال ؟

مقالة نشرت في جريدة السفور

رأي

في انتقاد محمد افندي جلال

لديوان المازني

بلاني الله بخادم أديب يقرأ جرائدي قبلي وقد لا يتكلف ردها الى منضدتي لو أعجبته . اني مشترك من مدة في جريدة السفور التي احتجبت عني عقب اشتراكي فلم أرها أمامي الا من يومين . لا أعرف لماذا سمح الخادم بردها . لعلها لم تعجبه في هذا الاسبوع ؟ فتحتها فوقع نظري على اسم فاضل من معلمي الترجمة ربما كان اذكى معلم ضليع باللغات صادفته في دراستي هذا الفن . وقد درست على عدد عظيم غيره ولكن ذلك بكل أسف لم يغير النتيجة التي اعتدتها وهي السقوط في الامتحان . بعض الناس وهبهم الله ملكة تمكنهم من قول الشعر وبعضهم يخصهم بسهولة تعلم اللغات الاجنبية أو فهم الرياضيات مثلا أو ما اشبه . اما انا فوهبني قوة تمكنني من

السقوط في الامتحانات بتلك السهولة على انه لا يهمني ما دمت سائراً في طريقي

عبد القادر افندى المازني كان شاعراً كبيراً اذ كنت تلميذاً كسلاناً كما عرفته منتقداً لبقاً . ولم يكن ذلك رأيي فيه وحدي بل كنت أسمع من الاساتذة الآخرين وخاصة عارفيه مثله ، وارى اعجابهم بذكائه

كان المازني افندى في ذلك الحين « وقد مضى عليه بضعة أعوام » ينتقد شعر حافظ بك ابراهيم ويعيبه بعض السرقات وينشر آراءه فيه بأنه لا يستحق كل ما نال من الشهرة وما يعزون اليه من النبوغ ويظهر الآن انه وقع في الفخ نفسه : وجهت اليه سهام المنتقدين يعيبونه بما عاب هو به حافظاً . من بينهم شاب اديب يكتب في السفور باسم محمد افندى جلال يقول انه صديق المازني افندى . أظهر لنا في عدد ١٣ اكتوبر بعض سرقات صديقة الشعرية بطريقة دالة على حدة الذكاء والصراحة . والحق ان عمله دقيق يشهد بمهارته وسعة اطلاعه

أما انا فأعترف كما اعترف بعجزي عن مثل هذا العمل . وكثيراً ما اسائل نفسي ما فائدة تضييع الوقت في النقد

والتنقيب عما عساه أن يعيب بعض من يشتهرون من الشعراء ؟ ولو كنت قادراً على مثله لضننت بوقتي ان اضيعه في توضيح سرقات الشعراء للناس

يقول بعضهم ان حافظاً بك ابراهيم سرق أغلب افكاره ومعانيه في شعره من المتنبي وأبي العلاء . هذا كما قلت عمل دقيق يدل على سعة الاطلاع ولكن ماهفائدته وما الغرض منه ؟ هل المتنبي وابو العلاء سرقا معانيهما من (ارسطو) أم خلقا هذه المعاني من العدم ؟ فيه قولان :

من الناس من يدعي صحة الاول وانهما أخذا جميع المعاني من حِكَمَ (ارسطو) ولكن هذا لا يحل المسألة تماماً لانه يبقى علينا معرفة منبع افكار هذا الأخير . فهل هو خلق افكاره من العدم ايضاً أم هي افكار عصره احسن جمعها

بيد ان طائفة من الناس يقولون انه أخذها من المدنية الهنديه التي وجدت قبله كما ان هذه أخذت من المدنية الصينية التي وجدت قبلها وهكذا . ولكن هذا على العموم رأي يحتمل الصحة والخطأ وخبر يحتمل الصدق والكذب

وبعضهم يظهر للناس سرقات المازني افندي من (هود)

و(شكسبير) وبعض شعراء الانكليز: هذا شيء جميل ايضاً ولكن من أين سرق (شكسبير) او (هود) آراءهما؟ ربما خلقاها من العدم ان الله قادر على كل شيء يهب من شاء من خلقه ما شاء انما هذا رأي ضعيف مشكوك فيه

منذ شهرين قابلت فكرة سررت منها في كتب (أناتول فرنس) الكاتب الفرنسي الشهير ومؤداها ان (الألم له فائدة عظيمة ومن غيره لا تظهر للحياة قيمة. ولو كان الانسان في سرور دائم لا يكون ذلك سروراً بل يصبح أمراً مألوفاً) قد دهشت حينما وجدت تلك الفكرة بعينها تكاد تكون حرفية في شعر «موسيه» الشاعر الفرنسي الذي وجد من زمن بعيد قبل الكاتب. (فاناتول فرنس) اخذها من (موسيه)

ودهشت اكثر من ذلك عندما صادفت الفكرة بعينها في كتاب فلسفة. واتضح لي ان هذه الفكرة بعينها كانت موجودة عند اليونان من القدم تدرس في مدارسهم وتعتبر من الافكار التي يستحسنونها ويبنون عليها جزءاً من فلسفتهم

ظهر لي ان لا (أناتول فرنس) ولا (موسيه) بجلالة قدرهما اول من ابدع هذه الفكرة واصبحت افكر فيما لو

كانت الجملة اللاتينية التي معناها (لن تجد شيئاً جديداً تحت الشمس) صحيحة او كاذبة ؟ فلئن صحت لكان معناها ان لا يقول الانسان شيئاً جديداً بل يعيد بعبارات وأساليب مختلفة ما قيل وأعيد مراراً . يمكننا القول بأن العلم تقدم أي اننا اكتشفنا أشياء كانت مجهولة للقدماء ولكنا لا يمكننا ان نقول اننا وجدنا فكرة فلسفية واحدة او حكمة لم يقلها القدماء . ان الفلسفة لم تتقدم خطوة واحدة واننا لم نفسر موضوعاً عجز امامه الاقدمون فالأفكار اليوم في بعض المواضيع غامضة كما كانت عندهم ولم نقل فيها شيئاً يذكر والدليل ان الناس لا يزالون يجهلون نظرية الحياة والموت . والروح . ونظرية المادة واثبات وجود الاله . ولو وصل انسان الى توضيح شيء منها اكثر مما قاله القدماء أي انه تمكن من اكتناه حقيقتها لخضع أمامه العالم أجمع

يقول محمد افندى جلال ان المازني أفندي اتفق مع (هرد) في فكرة فما الغرابة في ذلك ؟ أليس كل منهما انساناً ؟ وهل من المستحيل ان يتفق الاثنان في فكرة ؟ توجد الوف الافكار لا يتفقان فيها فلم لم يذكرها جلال افندى ؟ الظاهر

« لا يرى (ككثير من الشبان) في كل فكرة الا شيئين ماسيين : خالق لتلك الفكرة ، واص سرقها . فيعين هو لخالق واللص كما يعن له ولعمري لا ادري على اي قانون نقلي يفعل ذلك ؟ ربما كان محمد افندي جلال مصيباً فيما يدعي ولكننا نرجوه ان يوضح مراده ويشرح نظريته بطريقة سهلة يتيسر فهمها لكل قاريء فاني من الذين لم يفهموا معنى انتقاده . لعله يكتب للاذكياء النابغين وينسى ان كثيراً من قراء السفور طلبة لا يفهمون الشيء الا اذا كان مشروحاً شرحاً تاماً

الا يجوز ان تلك الفكرة (اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) طرأت على ذهن عربي قبل الهجرة بقرون وفي الوقت نفسه طرأت على فكر ياباني في الصين ؟ فأي الرجلين يعتبر اللص في تلك الحالة ؟ وهل من المستحيل ان تطرأ فكرة على رجلين او اكثر في وقت واحد ؟ تقول في مقام النصح لطفل مثلا او تكتب : لا تسرق ! لا تكذب ! والا فلا تعتبر انساناً شريفاً الخ

من اين سرقت هذه الفكرة ؟ وبأي جرأة تستعملها ما دام غيرك استعملها قبلك ؟

هذا مثل فقط يوضح ما اريد فربما لا تقول ولا تكتب شيئاً من ذلك بل تكتفي بترجمة (شكسبير) والقبض على النصوص . لم يسبق لي معرفة جلال افندي معرفة شخصية ولكني عرفته بكتابته جديراً بالاحترام فليسمح ان اناقش رأيه بلطف ودعة على قاعدة حسن التفاهم وندقق النظر معاً فيما يأخذ به المازني افندى ونسائل عقولنا : هل افكار الانسان متوقفة على غيره كما تتوقف ذاته ؟ فان كلا منا يولد وكأن فيه طباع عائلته والأمة التي هو منها وبعض طباع معينة تذكر بطباع اجداده . يظهر فيه حسنها وسيئها بكل اسف . ان هذا التسلسل في الطباع التي تتبعها افكار مناسبة لها ظاهر بوضوح وقد لاحظه الناس من قديم الزمان . كم من صبية برآء ذاقوا مر العذاب طول حياتهم من ادواء هي نتيجة اعمال آبائهم (وكثير ما يوجد ذلك في ابناء الحشاشين ومدمني الخمر) فلحق هؤلاء المساكين عقاب سيئات لم يفعلوها وكثير ما يكون ذلك سبباً في ضعف عقول الاولاد وسخافة افكارهم ؟ وكلنا تنسى ذلك ونلوم الاولاد على غباوتهم ونؤاخذهم على افكارهم الضعيفة . لنترك ذلك ولنقصر القول على البحث فيما

لق بالعلوم والآداب التي هي مجال العقل

ان قوة تفكيرنا ومقدار قيمتنا متوقفان على أناس البيئة ني نعيش فيها ففي عائلاتنا وفي مدارسنا وبمخالطة من حولنا كونت جميع مواهبنا من صغرنا شيئاً فشيئاً . وتعلمنا كيف نكر ونتكلم ونحب ونريد . ففي أى صنعة يبديها الانسان شاهد عمل مدنية مضت . وكل انسان لدرجة معينة يعبر عن كرة من الافكار الانسانية في وقته

لو قرأ الانسان كتاباً واحداً منذ قدرته على التفكير لأثر ذلك على افكاره دون ان يشعر فيصبح يفكر بكيفية الذين فكروا قبله وبهذه الكيفية تتسلسل الافكار وتكون سلسلة طويلة لا يشغل الانسان فيها الا حلقة صغيرة لا تذكر وحدها

نجد في اعتقاداتنا وافكارنا وطباعنا آثار الوسط الذي نشأنا فيه فمن ذا الذي يمكنه ان يحدد بالضبط تأثير آبائنا ومعلمينا واصحابنا والكتب التي قرأناها على افكارنا ؟ . . ومن ذا الذي يمكنه ان يحدد تأثير آراء رجل كابي العلاء المعري او (ماكولي) او (فكتور هوجو) علينا ؟ الخ

ان افكار الغير هى التى كونت افكارنا فكيف يستغرب

الانسان بعد ذلك ان يتفق رجلان في عدد معين من الافكار؟ لمَ تلومني على فكرة اخذتها من (هود) ولا تلومني على عشر اخذتها من معلم العربي و١٥ من صديق لي و ٢٥ من المربية و ٣١٦ من البواب ؟ ألسنا جميعاً نسير على هذا المنهج ؟

يجب ان نلاحظ أننا اذا كنا نتوقف على غيرنا فغيرنا ايضاً متوقف علينا وهو يربح او يخسر من اعمالنا مهما كانت مراكزنا وحظنا من الانسانية في المجتمع فان جميع اعمالنا حتى التي تظهر لا أهمية لها قد تكون لها نتائج غريبة . فبذرة يغرسها رجال اليوم عبارة عن ظل يحضرونه لاولاد الغد كما ان نصيحة تعطى لشاب او عكسها عبارة عن فضيلة او رذيلة نبثها في نفسه . وتلك أراء نبثها فيهم يستعملونها فيما بعد في كتاباتهم ومناقشاتهم .

قبل ان ينتهي الكلام على هذا الموضوع اذكر ما قاله الشاعر (موسيه) في هذا الصدد :

« عزمي ان أقول شعراً هذا اليوم . . . حكاية معينة . . فهل انتم ستذمونها وتنتقدونها لذلك . . . هل الذنب على الحكاية لو كتبتها هكذا ؟

« ربما تقولون ان (بيرون) كان نموذجا لي فيها . ألا ترون ان (بيرون) نفسه كان يقلد (بلثي) ؟ اقرأوا الطليان تتم ترون ان كان (بيرون) لم يسرق منه . اسمعوا ؟ لا يوجد يء ملك شيء والكل يملك الكل . يجب ان يكون الانسان جاهلا كمعلم مدرسة لكي يدعي ان في قدرته ان يقول كلمة واحدة (يريد فكرة) لم يلفظ بها أحد قبله . ألا ترى ان زرع الكرنب هو تقليد الغير . . . »

أناقش رأى جلال افندى بناء على طلبه واني واياه لعلى اتفاق في لوم المازني افندى لذمه حافظاً منذ ست او سبع سنين وآخذه على ما يسميه (سرقات من شعر الغير) كما ألوم جلال افندي على ما يكتبه الآن تشهيراً بالمازنى . ولا أعتقد ان ذلك سيكدره . فمذهبي لوم كل من ينتقد شاعراً بدعوى انه سرق من غيره . . ولا أريد بذلك انه يمكننا ان نأخذ من كلام الغير ما حلا لنا ونسبه لانفسنا . كلاّ فمثلا لو اخذت كتاب الدكتور طه حسين وطبعته مدعياً انه كتابي لكنت لصاً حقيقة . أما اذا وضعت كتاباً في موضوعه وضمنته كثيراً من المعلومات التى ضمنها كتاب الاستاذ او ما يشابهها بعبارة

أخرى مثل عمي ابى العلاء وتحريمه اللحم وتركه التزوج الى آخره . فلا يسمى ذلك سرقة وكذلك الآراء التي أبديت في الرجل وفي عقيدته وشعره وقدره الخ . فذلك امر مباح للعموم وللمؤلف التعبير والتركيب

ان الافكار والمعاني كنز للناس اجمع ومورد عام كل يأخذ منها ما يروقه ويحتاجه في تكوين كتاب او قطعة شعرية كما يبنى قصر من الحجر والرمل والجص فتلك المواد يستلزمها كل بناء وللباني الشكل الخاص الذي نسقه فقط . كذلك المؤلف او الشاعر يغترف من مورد الافكار العامة ما يحتاجه ويصوغه على ما يلائم ذوقه ومقدار حظه من الجودة فان اعترضه منتقد ونسبه للسرقة من غيره كان له ان يدفع عن نفسه بقوله للمعترض « انى لم ازد في عملي على عمل من نسبت للسرقه منه فعده اصلاً مثلي والا فاسكت » ؟

بالرمل . الاسكندرية احمد راسم

تم الكتاب

جميع مناقشاته خيالية دائرة بين اسماء منتحلة لم يقصد بها انسان

وقع بعض خطأ مطبعي بسيط لا يعزب عن فطنة القارىء الاهتداء الى صوابه ولكنه قليل فلم نرَ داعياً لوضع صحيفة للخطأ والصواب

obeikandl.com